روح الهند العظيم

غاندي

روح الهند العظيم

غانـــــدي

يوسُف أبو الحَّجاج الاقصرى



تقديم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وبعد

بين يديك عزيزي القارئ صفحات مضيئة لقصة نجم ولد يوم 2 أكتوبر 1869م في سماء الهند في مدينة صغيرة على شاطئ الهند الغربي ولم يكن أحد يتصور أن بزوغ هذا النجم الذي أخذ يسطع ويتلألأ في سماء الهند كلها في الرُبع الأول من القرن العشرين ويلقي بأضوائه الباهرة التي جذبت الهنود وراءه في كل مكان تصل إليه أقدامه ولم يكن أحد يعلم فعلاً أو يمكن أن يتصور أن هذا الرجل استطاع أن يفجر قوة أدبية جذبت إليه أنظار العالم كله فهذا الرجل المسالم الأعزل الذي لم يستخدم سلاحاً في أي من معاركه استطاع أن يغير وجه التاريخ وكان كفيلاً بأن يقف ضد أعظم إمبراطورية ذات جبروت في العالم في ذلك الوقت، بل استطاع أن يقهر الإمبراطورية البريطانية ويحصل للهند على استقلالها من خلال مقاومته السلبية إنه «غاندي».

* ليس المهاتما غاندي زعيما نما إلى القداسة بل هو قديس

تقلد الزعامة وجعل من كفاحه قضية دينية روحية ذات مظهر سياسي وإذ كان هو يرى العكس تواضعا منه.

* وليس خافيا أيضا أن نعرف أن هذا الرجل الأسطورة الذي عاش على أرض الواقع تسع وسبعون عاماً جاهد خلالها نصف قرن يعتبر بحق أنضج ثمرة من ثمرات الحركة الوطنية الهندية، فالذين سبقوه ومهدوا له الطريق وحطموا بعض الأحجار وقضوا على كثير من العقبات التي صادفتهم، لم يصلوا لشهرته ومكانته وعندما لعب غاندي دوره على مسرح جنوب أفريقيا وقف إلى جانب الهنود الموجودين بها والذين كانوا يمثلون الاضطهاد بأبشع صوره، ثم على مسرح الهند حيث لعب دوره بمهارة فائقة في الفترة من عام 1915م حتى وافته المنية واغتيل على يد متطرف هندوسي عام 1948م.

مع غاندي «الروح العظيم» أو المهاتما كما أطلق عليه عامة الشعب الهندي تدور سطور هذا الإصدار متمنيا قراءة ممتعة.

والله الموفق والمستعان

المؤلف

«الفصل الأول»

«غاندي في سطور»
١٨٦٩ـ١٩٤٨م

«غاندي محرر الهند الحديثة»

* ينتمي موهنداس غاندي إلى أسرة من طائفة بانيا الهندوسية وكانت ذات نفوذ وجاه واسعين، وتولى والده «كابا غاندي» القضاء ورئاسة الوزارة في ولايتي راجكوت وفانكانز..

* تزوج والده أربع مرات على التعاقب، وكان موهنداس ابنه الأصغر من زوجته الرابعة.

* ولد موهنداس غاندي في بوربادار في 2/ 10/ 1869م وكانت والدته هندوسية متدينة، وقد أمضى موهنداس طفولته في مسقط رأسه وبدأ الدراسة فيها، وفي سن السابعة انتقل مع أسرته إلى «راجاستانك» حيث عُين والده عضوا في محكمتها،ودخل مدرسة أولية فيها، ولما بلغ الثانية عشر انتقل إلى المدرسة الثانوية وكان طالباً عادياً شديد الحياء، منعزلاً.

«الزواج المبكر»

أكره موهنداس غاندي على الزواج في سن الثالثة عشر من فتاة اسمها كاستورباى وكانت في مثل سنه وأمية، وقد خسر سنة دراسية

من المرحلة الثانوية بسبب زواجه هذا، وقد أظهر تقدما بعد ذلك في المدرسة الثانوية حتى أنه حصل على منحتين دراسيتين بسبب تفوقه وكان لا يحب التمرينات الرياضية وكان سيئ الخط اعتقادا منه أن الخط الجميل ليس جزءاً أساسيا من الثقافة وإن كان قد غير أفكاره هذه، فيما بعد وفي السادسة عشرة من عمره توفي والده..

«الدراسة في إنجلترا»

اجتاز موهنداس غاندي امتحان «الثانوية العامة» سنة 1887م ورغب أفراد أسرته في أن يواصل دراسته العُليا في كلية سامالداس في بهافناغار، ولكنه لم يستطع مواصلة الدراسة فيها، فعاد إلى بلده بعد الفصل الأول، وبناء على نصيحة صديق للأسرة تقرر إرساله إلى إنجلترا لدراسة القانون من أجل أن يحصل على منصب رفيع في إدارة شئون الدولة، ولم توافق الأسرة على ذلك إلا بعد أن أقسم على أنه لن يشرب الخمر، ولن يمس امرأة ولن يأكل اللحم، ولما علمت طائفة «البانيا» بعزمه على السفر قررت نبذه، ونبذ كل مَنْ يتعامل معه، وأخيرا أبحر من بومباي إلى إنجلترا في 4/ 9/ 1887م وكانت معرفته باللغة الإنجليزية محدودة جدا، وبلغ لندن واستأجر غرفة لدى أسرة إنجليزية، وكانت أكبر مشكلة واجهته هي الطعام

النباتي، وأثناء إقامته في لندن زار باريس عام 1890م للاطلاع على معرضها الكبير وأقام أسبوعاً هناك، وقد قضى موهنداس غاندي ثلاث سنوات في لندن أي «12 فصلا دراسيا» بعد أن نجح في امتحان المترك الإنجليزي، واجتاز جميع امتحانات مواد القانون وفاز بشهادة البكارليوس في القانون في 10/ 6/ 1891م وسجل اسمه في المحكمة العليا في اليوم التالي، وأبحر عائداً إلى الهند في 12/ 6/ 1891م.

«متاعب بعد العودة»

* عندما عاد موهنداس غاندي إلى الهند أدرك أنه لا يعرف شيئاً عن القانون الهندي، وأنه خالي الذهن من الشريعتين الهندوسية والإسلامية ولا يعرف صياغة المرافعات أمام المحاكم، كما كان عليه أن يواجه مشكلته مع طائفته الدينية وعلم أن والدته قد توفيت فحزن عليها حزنا شديداً، وقد نجح أخوه الأكبر الذي كان طموحاً ويعلق على موهنداس أمالاً كبيرا في حل مشكلته مع الطائفة وأعيد إليها، كما وجد أن ابنه الذي أنجبته زوجته قبل مغادرته قد بلغ الرابعة من عُمره.

* رأى موهنداس أن يقيم في بومباي ليكتسب الخبرة في المحاماة ودراسة القانون الهندي، وشعر بعجزه عن ممارسة هذه المهنة، ومع

ذلك بدأ بالدفاع في محكمة الصُلح غير أنه لم يستطيع الاستمرار فيها، وفكر في التخلي عن مهنة المحاماة وأن يعمل مدرساً للغة الإنجليزية ولكنه لم يوفق في ذلك، وبعد ستة أشهر في بومباي عاد إلى بلدة «راجكوت» حيث فتح مكتباً للمحاماة كان يدر عليه دخلاً شهريا مقداره ثلاثمائة روبية، وواجه «موهنداس غاندي» صعوبات كثيرة اضطرته إلى التفكير بضرورة مغادرة الهند والسفر إلى جنوب أفريقيا بعد أن تلقى عرضا من شركة «دادا عبد الله» هناك للعمل فيها محامياً.

« غاندي في جنوب أفريقيا »

* سافر «غاندي» إلى ناتال «دوربان» في جنوب أفريقيا وحيداً تاركا زوجته وابنه في «راجكوت» وذلك سنة1893م، وقد وجد أن الجالية الهندية في جنوب أفريقيا منقسمة إلى فئات ثلاث هي التجار المسلمون ويسمون أنفسهم عربا، والمستخدمون الهندوس ومعظمهم من العمال، والمستخدمون البارسيون ويسمى أنفسهم فرساً.

* وكان قد استقبله تاجر مسلم وهو صاحب الشركة التي استقدمته واسمه عبد الله شيت، وقد كلفه بالذهاب إلى بريتوريا للدفاع أمام محكمتها في دعوى للشركة، وفي بريتوريا دعا جميع الهنود المقيمين فيها إلى اجتماع عُقد في منزل عبد الله شيت، وفي

الاجتماع دعاهم إلى الوحدة وإلى تأليف جمعية للدفاع عن الهنود وعن حقوقهم، واستمر في عقد الاجتماعات حتى أصبح يعرف جميع هنود بريتوريا، ومكنته إقامته في بريتوريا من معرفة أحوال الهنود ومشكلاتهم في الترانسفال ودولة أورانج الحرة، وأصبح غاندي المدافع عن الهنود الملونين في جنوب أفريقيا خلال إقامته في بريتوريا التي دامت سنة واحدة.

* عاد غاندي إلى ناتال وتعاون مع الشيت حاجي محمد زعيم الجالية الهندية فيها وبدأ في تنظيم الهنود فيها والمطالبة بحقهم في الانتخابات النيابية فكسب عطفهم وتأييدهم بل وتعلقهم به، وقُبل في الوقت نفسه محاميا لدى المحكمة العُليا في «باتال» واستمر يعمل في تنظيم الهنود، وانشأ في 23/ 5/ 1894م «المؤتمر الهندي في ناتال» في منزل دادا عبد الله الواسع، وأقر دستور المؤتمر ورسم الاشتراك ومقداره خمسة شلنات شهريا كحد أدنى، وانتخب غاندي سكرتيرا للمؤتمر، وبعد أن قضى غاندي في جنوب أفريقيا ثلاث سنوات عاد إلى الهند واتجه إلى بلدته راجكوت حيث أعد تقريرا كبيرا عن أحوال الهنود في جنوب أفريقيا وأرسل هذا التقرير إلى جميع الصحف وإلى زعماء مختلف الأحزاب السياسية.

«العودة من جنوب أفريقيا»

عندما عاد غاندي إلى الهند اتصل في بومباي بالسير فيروز شاه مهتا الذائع الصيت وأتاح له إلقاء خطاب لأول مرة في جموع الهنود المثقفين، وبذلك مهد له الطريق للاتصال بالناس، فذهب غاندي إلى مدينة «بونا» واتصل بالقادة السياسيين فيها، ثم انتقل إلى مدينة «مدراس» واتصل بالجمهور والصحفيين وزار «كلكتا» وأثناء زيارته لها تلقى برقية من جنوب أفريقيا بضرورة العودة إلى الترانسفال.

مرة أخرى في جنوب أفريقيا

* عاد غاندي مرة أخرى إلى جنوب أفريقيا ولكنه في هذه المرة كان مصطحبا زوجته وولديه وذلك في كانون الثاني عام 1897م وقرر أن تلبس زوجته الساري البارسي وأن يلبس ولداه السترة والسروال البارسيين باعتبار البارسيين أكثر طوائف الهند تمدناً، وتعودت امرأته وولداه لأول مرة على لبس الأحذية والجوارب مثلما تعودوا بعد كثير من التبرم على استعمال الشوكة والسكين.

* ولما وصلت الباخرة إلى «دوربان» احتج البيض على عودة «غاندي» وهددوا شركة «دادا عبد الله» إذا لم تعد الباخرة إلى الهند، غير أن مسؤولي الشركة لم يأبهوا للتهديد، وفرض الحجر الصحي

على الباخرة لمدة خمسة أيام، ولما نزل غاندي إلى البر، ذهبت زوجته وولداه لوحدهما ونزل غاندي وصديق له لوحدهما فتعرض غاندي للضرب والأذى من البيض، وأنقذته من المعتدين زوجة مدير الشرطة في دوربان، ووصل غاندي لمنزله في حراسة الشرطة، وقد تسامح غاندي مع المعتدين عليه ومارس عمله كمحام بسلام، ولكن العمل في حقل الخدمة العامة استغرق معظم وقته، وعاد إلى نشاطه في المؤتمر الهندي، وقد أنجبت زوجة غاندي ولدين في جنوب أفريقيا، فأصبح لديه أربعة أولاد وواجه صعوبة في تربيتهم.

«غاندي وحرب البوير»

حينما أُعلنت حرب البوير عام 1899م واستمرت حتى عام 1902م، تعاطف غاندي مع البوير، غير أن ولاءه للحكم البريطاني قاده إلى المشاركة مع البريطانيين في تلك الحرب، وشعر أنه إذا ما طالب بحقوقه كمواطن بريطاني، فإن من واجبه المشاركة في الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية وكان الإنجليزي العادي يعتقد أن الهندي جبان وأنه لا يفكر إلا بمصلحته الشخصية، وألح غاندي على السلطات البريطانية لتأليف كتيبة من الهنود للمشاركة في القتال، وبعد جهد قبلت السلطات بذلك وتألفت كتيبة منهم تضم «1100» رجل قاموا بأعمال إسعاف الجرحى.

العودة مرة ثانية إلى الهند

* عاد غاندي مرة أخرى إلى الهند عام 1901م، وحضر اجتماع «المؤتمر الهندي» في كلكتا وبقى في المدينة شهرا اتصل خلاله بالعديد من الشخصيات السياسية الهندية من مختلف الطوائف والطبقات، وسافر إلى راجكوت بالقطار ولم يطل به المقام وعاد إلى بومباي ليبدأ فيها عمله كمحام ومارس مهنته هناك بنجاح.

«العودة إلى جنوب أفريقيا مرة ثالثة»

* لم يطل مقام غاندي في الهند، فقرر العودة إلى جنوب أفريقيا بدعوة من أصدقائه هناك عام 1903م وافتتح مكتبا للمحاماة في جوهانسبورغ وانخرط في شؤون الجالية الهندية، وساهم في إصدار صحيفة «الرأي الهندي» سنة 1904م، ونشر فيها مقالات عن مبادئ اللا عنف وأسلوب ممارستها وأنشأ مزرعة تعاونية في «فونيكس» واستقدم أسرته من الهند إلى جنوب أفريقيا بعد مرور سنة على إقامته فيها، وبسبب قيامه بتنظيم عصيان مدني ضد السلطة الحاكمة أودع السجن لمدة شهرين عام 1908م وألف كتابا عن تاريخ اللا عنف في جنوب أفريقيا، واختتم نضاله اللا عنفي عام 1914م وعاد إلى الهند مع أسرته عن طريق لندن في تلك السنة بعد أن اندلعت الحرب العالمية الأولى.

«غاندي والحرب العالمية الأولى»

دعا غاندي الهنود إلى التطوع في صفوف القوات البريطانية أثناء وجوده في لندن وبدأ تدريب الهنود كمقاتلين، كما تبرعت السيدات والشيوخ الهنود للمجهود الحربي البريطاني، وتدرب غاندي على الإسعاف، ولكنه عاد إلى الهند ونزل في «بومباي» حيث استقبل بالاحتفاء به، واتجه بعدها إلى بونا فراجكوت، وبورباندر للقاء أهله فيهما، وتوجه بعد ذلك إلى «أحمد آباد» ليؤسس مؤسسة «أشرم» لرعاية المنبوذين في 25/ 5/ 1915م.

وفي عام 1918م قاد غاندي مظاهرة عمال النسيج في هذه المدينة «أحمد آباد» ونجح في تسوية أوضاع العمال، واعتقل غاندي عام 1918م بسبب نشاطاته الاجتماعية الاقتصادية ثم أطلق سراحه.

العلاقة بين الهندوس والمسلمين

سجل غاندي في مذكراته الشخصية التي أسماها «قصة تجاربي مع الحقيقة» أنه أدرك في وقت مبكر في جنوب أفريقيا أنه «لم يكن ثمة صداقة بين الهندوس والمسلمين، وأنه لم يدع أي فرصة تمر من غير أن يعمل على إزالة العقبات في طريق الوحدة بينهم، وعند عودته من جنوب أفريقيا إلى الهند اتصل بمولانا محمد على وبشقيقه

اللذين أودعا السجن وحاول زيارتهما غير أن السلطات البريطانية حالت دون ذلك، ودعى غاندي لحضور دورة الرابطة الإسلامية في كلكتا فألقى فيها خطابا ثم خطابا آخر في الكلية الإسلامية في عليكره، ودرس آراء الأخوين (علي) في مسألة الخلافة الإسلامية وأيدهما فانتقده كثير من الهندوس كما شارك في وضع ميثاق اللا عنف «عمر سوباني» من الهنود المسلمين وتشكلت منظمة اللا عنف «ساتيا غراها سابها» التي اتخذت بومباي مقرا لها عام 1919م وتولى غاندي رئاستها..

* ولما اندلعت الاضطرابات بين المسلمين والهندوس سنة 1924م صام غاندي ثلاثة أسابيع احتجاجاً على ذلك، واستمر غاندي يقود المظاهرات وحركات العصيان المدني ضد الحكم البريطاني حتى عام 1930م ففي أغسطس «آب» من هذه السنة سافر إلى لندن في وفد ضم قادة حزب المؤتمر الهندي للتفاوض مع الحكومة البريطانية، واستمر في سياسة اللا عنف حتى عام 1942م، حيث وصل الصراع مع البريطانيين أوجه، ورفع حزب المؤتمر شعار اخرجوا من الهند، وأعلن حزب المؤتمر في تلك السنة «غاندي» زعيماً للأمة الهندية، واعتقل غاندي ثم أطلق سراحه في 5/ 1944م.

نهاية غاندي

ما إن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى بدأت المفاوضات بين حزب المؤتمر الهندي بقيادة «غاندي» والحكومة البريطانية وأسفرت عن استقلال الهند وباكستان في 15/ 8/ 1947م، ومن المحزن أن حياة غاندي قد انتهت بعد الاستقلال بعدة أشهر إذ اغتيل على يد متطرف هندوسي في 30/ 1/ 1948م وقد كرمه شعبه أحسن تكريم إذ أطلقوا على غاندي لقب «المهاتما» أي الروح العظيمة.



الفصل الثاني

«غاندي الإنسان»
ومذكراته الشخصية

عائلة غاندي الإنسان

* ينتمي غاندي إلى طائفة يطلق عليها اسم «الفاريسيا» أو الباريسيا وهي طبقا للنظام الاجتماعي في الهند تعتبر الطبقة «الثالثة» لأن الطبقة الممتازة والأولى في الهند كانت طبقة «البراهمة» وتليها في المرتبة طبقة «الكشائرية» أي طبقة الحكام والجنود ثم تليها طبقة الفايسيا وتنتهي بالطبقة الدنيا وهي الطبقة العاملة، ولا شك أن الأسرة التي انحدر منها غاندي ترجع في عدة أجيال متعاقبة إلى طبقة التجار التي اتخذت من التجارة حرفتها الأساسية ولهذا ليس غريباً أن نعرف أن كلمة غاندي في لغة الهندوس معناها «العطار».

* وقد وصل جد غاندي بعد أن ذابت الفواصل بين الطبقات بعض الشيء في الهند إلى مرتبة رئيس وزراء حيث اختاره «أمير بورناندار» في هذا المنصب على ولاية «كاثياوار»، ومن الطريف أن نعرف أن هذا الأمير غضب يوماً على «أوتمشند» جد غاندي فطرده ونفاه إلى ولاية أخرى وعندما قابله حاكم هذه الولاية مد يده ليصافح

«أوتمشند» فصافحه هذا الرجل بيده اليسرى فلما استفسر منه الأمير عن هذا التصرف الشاذ أجابه أنه في شديد الأسف لأن يده اليُمنى لا زالت وقفاً على أمير «بورناندار» وهذا وفاء عجيب في زمن عز فيه الوفاء من أجل رجل طرده ونفاه.

* تولى بعده ابنه «كرمشند» رئاسة الـوزراء خلفاً لأبيه في «بورناندار» وهو «والد غاندي» وكان رجل فاضل يتميز بعفة اليد لدرجة أنه يمكن التأكيد على رغم الفترة الطويلة التي حكمها وقدرها ربع قرن، فإنه عندما مات لم يترك لأولاده سوى القليل من الأموال التي لم تكن تكفيهم سوى شهور قليلة.

* ومن الطريف حقا أن «غاندي» كان يُعيب على والدة «كرمشند» أنه تزوج أربع مرات رغم أن زوجاته الثلاث الأولى قد انتقلت إلى الرفيق الأعلى، ورغم أن غاندي ذاته أنجبه والـدة «كرمشند» من زوجته الرابعة بعد أن كان قد تخطى الأربعين من عمره.

* كان غاندي أصغر أخوته الذكور فأبوه كان قد أنجب أول ما أنجب «لاكسميداس» الذي عمل بالمحاماة في «راجكوت» ثم أنجب الابن الثاني «كارسانداس» الذي كان مفتشا في البوليس في بورباندار، ثم أنجب فتاة هي «رالیابتن» وهذه كانت تكبر غاندي بأربعة أعوام.

* لقد مات الأخوان في حياة غاندي أما أخته فقد عاشت بعد غاندي بضع سنوات، وكان غاندي آخر العنقود فأحاطه والده بشيء كبير من الرعاية، وكان غاندي يُحب أباه ولكن حبه لأمه ليس له حدود لأن والدته «يوتليباي» كانت سيدة فاضلة متدينة شديدة التقوى لا تأكل لقمة بغير صلاة وتؤدي فريضة الصلاة كل يوم في المعبد حتى لو كانت مريضة وأثرت في حياة غاندي تأثيرا كبيراً.

* ولد «موهنداس» غاندي يوم 12 أكتوبر 1869م والتحق بالمدرسة الابتدائية في «بورباندار» ووجد صعوبة كبيرة في مسايرة زملائه في الدراسة فكان متخلفا بعض الشيء في بعض المواد إلا أنه تخطى ذلك وأثبت تفوقه.

* تميز بشدة خجلة لذلك لم تكن له صداقات كثيرة مع أترابه في المدرسة ولهذا فإنه وجه صداقاته إلى الكتب ينهل منها..

* كان غاندي يحب المشي ويصر على الذهاب إلى المدرسة مترجلاً عن أن يصل إليها بسيارة والده رئيس الوزراء الفاخرة.

* خطب له أبوه وأمه فتاة هي ابنة أحد تجار «بورباندار» وهما في سن السابعة كعادة أهل الهند، ولم يعلم غاندي بذلك ولا عروسته إلا عندما انتقل إلى المرحلة الثانوية ووصل سنه إلى 12 عام.

* تزوج «غاندي» من عروسه «كاستورباي» وكلاهما في الثالثة عشر من عمرهما وسمح له والده أن يفارق المدرسة لمدة عام وأن يحاول خلال هذه الفترة الاعتماد على نفسه للصرف على زوجته فكان والده يكلفه بنسخ بعض مذكراته وكتابة ما يكلفه به نظير مبلغ من المال.

* ويقول غاندي في مذكراته عن زوجته التي عاشت معه اثنتين وستين عاماً حيث تزوجها عام 1882م وانتهت حياتها عام 1944م يقول «إن حياة وخصال الطفولة كانت لها الغلبة على جميع تصرفاتهما وكانا كثيرا ما يتشاجران ويمتنع كلاهما عن الحديث مع الآخر لبضعة أيام ويرجع السبب في ذلك أنه كان شديد الغيرة عليها فضلاً عن ميله لحب السيطرة وإملاء أوامره عليها فكانت تطلب منه أن تخرج إلى الشارع لتلعب مع بعض زميلاتها فيرفض ويكون النتيجة أنها تتمرد عليه وأترككم مع ما سطره غاندي بنفسه عن زواجه وحياته الزوجية.

الزواج طفلاً

يتحدث غاندي في هذا الفصل عن قصة زواجه وهو طفل ويبدأ حديثه قائلاً :

ـ كم كنت أود ألا أكتب هذا الفصل لكن ليس بوسعي إغفال هذا الجانب مهما كان حجم المرارة التي أتجرعها وأنا أكتب هذه السطور، وإن كنت أدعي أنني من أنصار الحقيقة فليس بوسعي أن أفعل خلاف ذلك، فمن واجبي أن أذكر زواجي في سن الثالثة عشرة بغض النظر عن الألم الذي قد أعانيه، حين أنظر إلى الأطفال الذين تقترب أعمارهم من ذلك العُمر ممن هم تحت رعايتي، وأتذكر زواجي، أشعر بالشفقة على نفسي وبرغبة في تهنئتهم على النجاة من المصير الذي واجهته، فأنا لا أرى أي سبب أخلاقي يدعو إلى ذلك الزواج المبكر الذي ينافي المنطق.

ـ أرجو ألا يخطئ القارئ الفهم فقد كنت متزوجًا ولم أكن خاطباً، فهناك في كاثياوار نوعان من الطقوس الخطبة والزواج، والخطبة هي وعد أولي بالزواج بين والد الفتى ووالد الفتاة، ويمكن الرجوع

عنه،لا يترتب على وفاة الفتى أن تصبح الفتاة أرملة، فهو اتفاق بين الآباء فحسب، وليس للأبناء شأن به وفي أغلب الأحوال لا يعلم الأطفال عنه شيئاً، ويبدو أن والدي قد خطب لي ثلاث مرات دون علمي، حيث علمت بوفاة فتاتين كان والدي قد خطبهما لي، ومع ضعف ذاكرتي، فإنني أتذكر أن خطبتي الثالثة تمت وأنا في السابعة من عُمري، لكنني لا أتذكر أن أحدًا أخبرني بذلك، وسوف أتحدث في هذا الفصل عن زواجي الذي أتذكره بكل وضوح..

كنا ثلاثة إخوة، وكان أخونا الأكبر متزوجاً، فقرر الكبار أن يزوجوني أنا وأخي الآخر الذي يكبرني بسنتين أو ثلاث، وابن عمي الذي كان يكبرني بعام تقريباً، وأن يكون ذلك في يوم واحد، ولم يأخذوا بعين الاعتبار سعادتنا، ولا حتى رغباتنا، فقد كان الأمر يتعلق بمصلحتهم وتوفيرهم للأموال..

ـ إن الزواج عند الهندوس ليس بالأمر الهين، فوالدا العروسين غالباً، كانا يشرفان على الإفلاس بسبب حفل الزفاف فيهدران أموالهما وأوقاتهما، فالأمر يستغرق شهوراً للقيام بالاستعدادات من إعداد الملابس والزخارف وتوفير الأموال اللازمة للمآدب ويحاول كل منهما التفوق على الآخر في عدد أصناف الأطعمة المقدمة وتنوعها، وتقوم النساء بالغناء بغض النظر عن جمال أصواتهن أو قبحها حتى

تبُح أصواتهن ويمرضن، وكان ذلك يسبب إزعاجاً للجيران الذين كانوا يتحملون بدورهم كل تلك الجلبة والصخب بهدوء ويتحملون كل القاذورات الناتجة من بقايا الاحتفالات ويرجع ذلك إلى أن الجيران كانوا على علم بأنه في يوم ما سيتصرفون على نفس النحو، وقد رأى الكبار أن يتخلصوا من كل ذلك الصخب في يوم واحد وبصورة واحدة بحيث يُنفقون مبالغ أقل ويحققون منفعة أكبر، ويرجع ذلك في نظرهم إلى أنه يمكن إنفاق الأموال بسخاء إذا كانت ستنفق في ليلة واحدة وليس في ثلاث ليال مختلفة.

ـ لقد كان والدي وعمي كبيرا السن، وكنا آخر أولادهما غير المتزوجين، وعلى الأرجح كانت غايتهما أن يشهدا آخر أسعد لحظات حياتهما، ونظرا لكل هذه العوامل جرى الاتفاق على إقامة زفاف ثلاثي وكما سبق أن ذكرت استغرقت الاستعدادات للعُرس عدة شهور، وقد كانت تلك الاستعدادات هي الشيء الوحيد الذي أعلمنا بالحدث المنتظر، وأعتقد أن الزواج كان لا يعني لي سوى ارتداء الملابس الأنيقة وقرع الطبول ومراسم الزفاف والمآدب الفخمة واللعب مع فتاة لا أعرفها، أما الرغبة الجسدية فجاءت لاحقاً، وقد رأيت أن أسدل الستار على هذا الموضوع المُخزي، فيما عدا بعض التفاصيل التي تستحق الذكر والتي سوف أتعرض لها فيما بعد، وذلك مع أن

تلك التفاصيل ليست وثيقة الصلة بالفكرة الرئيسية التي كانت تدور بخُلدي عند كتابة هذه القصة، وهكذا انطلقنا أنا وأخي من راجكوت إلى بورباندار، وهناك بعض التفاصيل المضحكة التي وقعت في أثناء المراسم التمهيدية للعُرس مثل تلطيخ أجسادنا بمعجون الكركم لكن يتعين عليَّ التغاضي عن مثل هذه التفاصيل، وكان والدي يشغل منصب في الديوان لكنه لم يكن مجرد موظف حكومي لأنه كان موضع تقدير أمير الولاية، وحتى اللحظة الأخيرة لم يكن الأمير موافقا على سفر والدي، ولكن عندما وافق أمر لوالدي بعربة خاصة بأربع عجلات تجرها الخيول لتكون تحت تصرفه حتى يوفر يومين من زمن الرحلة ولكن الأقدار شاءت غير ذلك، إن بورباندار تبعد 120 ميلا عن راجكوت أي أن الرحلة كانت ستستغرق خمسة أيام بواسطة العربة وقد استغرقت الرحلة من والدي ثلاثة أيام فقط لكن العربة انقلبت في اليوم الثالث، مما تسبب له في إصابات بالغة، وعندما وصل والدي كانت الضمادات تغطي جسده كله، ولقد أدت إصابته إلى ضياع جزء كبير من شغفنا بالحدث المرتقب، لكن كان علينا أن نُقيم المراسم، فكيف يُمكن أن يتغير موعد الزواج، على كل حال، أنستني سعادتي الطفولية بالزواج الحزن على إصابة والدي، لقد كنت باراً بوالدي، ولكنني كنت مولعاً أيضاً بالمشاعر الحسية،

ومع ذلك كان عليَّ أن أتعلم أنه يجب التضحية بكافة أنواع السعادة والملذات من أجل خدمة والدي. وسوف أروي فيما بعد حادثة أخرى لا تزال عالقة في ذاكرتي، مع أنها كانت في صورة عقاب لرغباتي الشهوانية، يتغنى نيشكولاناند قائلاً «لا يدوم التخلي عن الأشياء المادية طويلاً دون التخلي عن الشهوات مهما حاول المرء» وكلما أنشدت هذه الأغنية أو استمتعت إلى كلماتها تذكرت تلك الحادثة المؤلمة وشعرت بالخجل يغمرني. ومع الإصابات التي كان يُعانيها أبي تظاهر بالتماسك وشارك في الزفاف، وعند استرجاعي للأحداث أستطيع أن أتذكر بوضوح الأماكن التي كان يجلس فيها ويتابع منها تفاصيل مراسم الزفاف المختلفة، ولم يخطر ببالي حينها أنه سيأتي اليوم الذي أنتقد فيه والدي بشدة لتزويجي في تلك السن المبكرة، فقد بدا لي أن كل شيء في ذلك اليوم قد تم على نحو صحيح وكان مليئا بالجمال والبهجة ذلك بالإضافة إلى لهفتي إلى الزواج، ونظراً لأن كل ما فعله والدي آنذاك أثر في نفسي بدرجة لا تسمح لي بانتقاده ما زلت أتذكر تلك الأحداث بوضوح وحتى الآن أستطيع أن أتخيل كيف كنا نجلس على منصة الزفاف، وكيف قمنا بخطوات السابتابادي وكيف وضع كل منا الكانسار اللذيذ في فم الآخر وكيف بدأنا العيش معاً، والليلة الأولى، ويا لها من ليلة، طفلان بريئان قُذف

بهما إلى بحر الحياة دون أن يدركا، لقد أعطتني زوجة أخي نصائح بشأن ما عليَّ فعله في تلك الليلة، لكني لا أعُلم مَنْ الذي قدم النُصح إلى زوجتي، فلم أسألها قط عن ذلك، ولا أرغب في أن أسألها الآن، لعل القارئ على يقين بأننا كنا متوترين للغاية بحيث لم يستطع أحدنا مواجهة الآخر، وكنا بالطبع شديدي الخجل، كيف كنت سأتحدث إليها، وماذا أقول؟، لم تنفعني النصائح كثيرا، فالنصائح ليس لها أهمية حقيقية في مثل هذه الأمور، لأن الأفكار الموروثة عن الحياة السابقة للإنسان تطغى على جميع النصائح وتجعلها غير ضرورية، وبدأنا نتعارف، ونتحدث تدريجياً بحُرية أكبر، ومع أن أعمارنا كانت متقاربة فلم أحتاج وقتا طويلاً كي أفرض سيطرتي كزوج...

ممارسة دور الزوج

يقول غاندي:.

ظهر في المدة التي تزوجت فيها تقريبا عدد قليل من الكُتيبات التي تُناقش موضوعات مثل الحب بين الزوج والزوجة والاقتصاد في النفقات، وزواج الأطفال، وغيرها من الموضوعات، وكانت تُباع مقابل بايس أو باية «لا يحضرني المبلغ بالضبط»، وكنت كلما وقعت عيني على أي من تلك الكتيبات أتصفحها بالكامل ولكنني كنت أنفذ الأجزاء التي تروقني، أما الأجزاء التي كانت لا تروقني فكنت أنساها، فالإخلاص الأبدي للزوجة الذي تصوره تلك الكُتيبات على أنه واجب على الزوج، ظل مغروساً في قلبي إلى الأبد ولما كان الصدق متأصلاً في نفسي فقد كانت خيانة زوجتي مسألة مستحيلة وبالإضافة إلى ذلك لم يكن أمامي الكثير من فُرص الخيانة في تلك السن الصغيرة.

ـ ولكن درس الإخلاص هذا كان له أثر مشئوم أيضا، حدثت نفسي قائلاً: «إذا كنت سأُخلص لزوجتي، فيجب عليها هي أيضا أن تُخلص لي» فجعلت تلك الفكرة مني زوجاً غيوراً، وتحول واجب

إخلاصي لها ببساطة إلى حقي في الحصول على إخلاصها المُطلق، ولتحقيق ذلك الإخلاص المُطلق، كان عليَّ أن أتمسك بحقي في هذا بقوة ويقظة، بالطبع لم يكن هناك ما يدعوني للشك في إخلاص زوجتي لكن الغيرة عمياء، كان عليَّ أن أراقب تحركاتها باستمرار، فكانت لا تستطيع الخروج دون إذني وغرست هذه المسألة بذور الشجار المُر بيننا، وكانت القيود التي فرضتها عليها بمنزلة السجن، ولكن «كاستوربا» لم تكن من الفتيات اللاتي يمكن أن يتحملن مثل ذلك السجن فقد حرصت على أن تخرج وقتما تشاء، وكلما فرضت عليها مزيدا من القيود، تصرفت هي بمزيد من الحرية، مما زاد من غضبي، فأصبح امتناع كُل منا عن محادثة الآخر روتيناً يوميا لحياتنا، ولا عجب فقد كنا مُجرد أطفال، وأجد أن تصرف «كاستوربا» بهذه الطريقة كان طبيعيا جدا في ظل القيود التي فرضتها عليها، فكيف تتحمل فتاة بسيطة مثلها أية قيود تمنعها من زيارة المعبد أو زيارة صديقاتها، وإذا كنت أملك الحق في فرض القيود عليها أليس من حقها هي أيضا أن تفرض عليَّ قيوداً؟!

لقد أدركت كل هذه الأمور الآن فقط ولكن آنذاك كان عليَّ النجاح في فرض سيطرتي كزوج ويضيف المهاتما غاندي قائلاً: .

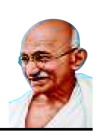
لا أريد أن يظن القارئ أن حياتنا كانت مسلسلاً من التعاسة

المطلقة، فقسوتي على زوجتي كانت بدافع الحب، فقد كنت أطمح في أن أجعلها مثالية، وأن تحيا حياة نقية وأن تتعلم ما لديَّ من علم، وأن تتوحد حياتنا وأفكارنا...

لا أعلم ما إذا كان لدى «كاستوربا» مثل ذلك الطموح أم لا؟ فقد كانت أُمية، إلى جانب أنها كانت بطبيعتها بسيطة ومستقلة ومحافظة ومثابرة على الأقل حين تتعامل معي، وكانت متقبلة لجهلها ولا أذكر أن دراساتي استطاعت قط أن تحفزها كي تخوض نفس تجربتي، ولذلك أعتقد أن طموحي كان أُحادي الجانب، لقد كانت عاطفتي موجهة إلى امرأة واحدة فقط، وكنت أرغب في أن يكون الشعور متبادلاً، ومع أن ذلك الشعور لم يكن متبادلاً فإن الحياة لم تكن شقاءً دائما لأن الحب كان موجوداً على الأقل من طرف واحد...

ويضيف المهاتما غاندي قائلاً:.

يجب أن أعترف أنني كانت مُغرماً بها حتى وأنا في المدرسة، اعتدت أن أفكر فيها وكان دائماً ما يُراودني حلول الليل ولقاؤنا المقبل، لم أكن أحتمل البُعد عنها، وقد اعتدت أن أجعلها مستيقظة لساعات متأخرة من الليل، وأنا أحدثها بكلام غير ذي قيمة؛ لو لم يصاحب هذه العاطفة الفياضة التزام شديد بالواجب لكان من



الممكن أن أقع فريسة للمرض والموت المبكر، أو أن أغرق في ظلمات حياة مليئة بالهموم، كان عليَّ أن أقوم بواجباتي صباح كل يوم، وكان من المستحيل أن أكذب على أي شخص وهو الأمر الذي أنجاني من الكثير من المصائب.

- سبق أن ذكرت أن «كاستوربا» كانت أُمية، وكنت أتوق لتعليمها، ولكن الحب الشهواني لم يُبق لي وقتا كي أُعلمها، فمن ناحية لم تكن ترغب في التعليم، ومن ناحية أخرى كان عليَّ أن أُعلمها ليلاً، لم أكن أجرؤ على أن أقابلها في حضور الكبار، ولا أن أحدثها بالطبع، ومن ثَمَّ لم تكن الظروف مواتية لتعليمها ويجب أن أعترف أن أغلب جهودي لتعليم «كاستوربا» في شبابنا باءت بالفشل وعندما تحررت من أسر الشهوة كنت قد انخرطت بالفعل في الحياة العامة التي لم تترك لي الكثير من وقت الفراغ، وفشلت أيضا في تعليمها بواسطة مُعلمين خصوصيين ونتيجة لذلك، لا تستطيع «كاستوربا» حالياً إلا كتابة بعض حروف قليلة وبصعوبة، بالإضافة إلى فهم اللغة «الجوجراتية» البسيطة وأنا على يقين بأنه لو كان حُبي لها خالياً تماماً من الشهوة لأصبحت امرأة متعلمة الآن ويرجع ذلك إلى أنني كنت سأستطيع حينها أن أقهر كرهها للدراسة فلا شيء يستعصى على الحب الطاهر، ويضيف غاندي قائلاً: - سبق أن ذكرت إحدى

الوقائع التي حدثت لي وأسهمت بقدر ما في إنقاذي من مصائب الحب الشهواني، وقد وقع حدث آخر يستحق الذكر أثبت لي بجانب العديد من الأمثلة الأخرى أن الإله يُنجي أصحاب الدوافع النبيلة في النهاية، فقد كانت تُسيطر على المجتمع الهندي عادة أخرى تحد إلى درجة ما من شر عادة تزويج الأطفال الوحشية وتتمثل هذه العادة في أن الوالدان لا يسمحان للزوجين الصغيرين بالبقاء معاً لفترة طويلة، فتقضي الفتاة المتزوجة ما يزيد على نصف الوقت في منزل والدها كما كان حالي مع زوجتي، ففي الخمس سنوات الأولى من زواجنا «من سن الثالثة عشرة إلى الثامنة عشرة» لم نعش معا فترة تزيد على ثلاث سنوات في مجموعها، وكنا نادراً ما نكمل ستة أشهر معاً دون أن يستدعيا والديها، لقد كان ذلك الأمر يضايقنا في تلك الأيام ولكنه مع ذلك كان درعاً لحمايتنا، وعند بلوغي سن الثامنة عشرة رحلت إلى إنجلترا مما أدى إلى مدة طويلة من الانفصال، وحتى بعد عودتي من إنجلترا كنا نادراً ما نمضي معاً فترة تزيد على ستة أشهر حيث إنني كنت أتنقل بين راجكوت وبومباي، ثم كانت دعوة جنوب أفريقيا وكنت وقتها قد تخلصت تماماً من الشهوة الجسدية.

شهادة في حق غاندي

* حاول غاندي أن يعلم زوجته «كاستوربا» القراءة والكتابة فشل هو وأحضر لها المعلمين الذين فشلوا معها أيضا ولكن عاد غاندي مرة أخرى وصمم على تعليمها واستطاع في النهاية أن ينجح في تعليمها مبادئ القراءة والكتابة أي أنه نجح حيث لم يوفق معلموها.

* وهناك شهادة في حق غاندي سجلها التاريخ الإنساني له على لسان «أشورا» خادم غاندي الذي كتب مذكراته الشخصية عن حياته مع غاندي والتي تمثل أهم مصادر البحث في شخصية غاندي حيث قال «إنني كنت من أسرة منبوذة ويعتبر اليهود أن ملامستهم نوع من النجاسة وعشت مع أسرة غاندي أخدم في منزلهم بشكل لا مثيل له وكان يقتطع من طعامه دون أن يعلم أبواه، ويعطيني الأكل حتى أشبع أحيانا، وأحيانا أخرى كان يشاركني الطعام..

* ويضيف «أشورا» قائلاً وإن غاندي عندما تزوج لم يتم بالطبع هذا الزواج عن حب إنما جاء هذا الحب عنيفاً بعد الزواج ونتيجة للعشرة الطويلة أصبحت زوجته تحبه حبا عميقا من أعماق قلبها

وتنظر إليه نظرة ملؤها الاحترام والتقدير وكان كل منهما ينافس الآخر لتحقيق هدف مُعين وهو إسعاد كل منهما الآخر، وكان غاندي سعيداً في زواجه فقد شاركته زوجته الحياة بحلوها ومرها، واعتنقت مبادئه وآمنت برسالته حتى أنه حكم عليها بالسجن بتهمة إثارة الهنود ضد حكومة البيض في جنوب أفريقيا، هذا وقد أنجبت له زوجته أربعة أطفال.

* التحق غاندي بمدرسة «راجكوت الثانوية» وهو في سن الثامنة عشر واستمر بها ثلاث سنوات لم يرسب خلالها وحصل على الثانوية العامة عام 1887م وكان أبوه قد مات قبلها بعام واحد.

* وعن هذه الأحداث يقول غاندي في مذكراته ما يلي:



في المدرسة الثانوية

يواصل غاندي في هذا الفصل من سيرته الذاتية حديثه عن مرحلة دراسته في المدرسة الثانوية فيقول:

كما ذكرت فيما سبق، كنت أدرس في المدرسة الثانوية حين تزوجت، وكنت وأخواي ندرس في المدرسة ذاتها، وكان أخي الأكبر يسبقني في الصف الدراسي بكثير، أما أخي الذي تزوج في نفس يوم زفافي فكان يسبقني بصف دراسي واحد، ونتيجة لزواجنا، تخلفنا عن المدرسة سنة كاملة، ولكن الزواج كان له أثر أكثر سلبية على أخي حيث إنه ترك الدراسة نهائياً، وهناك الكثير من الشباب يعانون نفس محنته، فلم يسر في التعليم والـزواج جنباً إلى جنب إلا في المجتمع الهندي المعاصر.. ويضيف المهاتما «غاندي» في سيرته الذاتية قائلاً:

بدأت في استئناف دراستي، ولم أكن بليداً في المدرسة الثانوية، بل كنت دائما ما أحوز على إعجاب مُعلمي، وكانت شهادات تفوقي العلمي والخُلقي تُرسل إلى والدي كل عام، ولم أحصل على شهادة

سيئة قط، بل حصلت على منح دراسية بلغت إحداها 4 روبيات والأخرى 10 روبيات على الترتيب ويرجع الفضل في حصولي على تلك المنح إلى حُسن حظي أكثر منه إلى استحقاقي إياها، فلم تكن المنح متاحة للجميع، بل كانت مقصورة على الأولاد المتفوقين ممن ينتمون إلى مقاطعة «سوراث» التابعة لكاثياوار وكان من الصعب في تلك الأيام وجود عدد كبير من الطلاب الذين ينتمون إلى سوراث في فصل يتراوح عدد طلابه بين أربعين وخمسين تلميذا، أذكر أنني لم أكن أُقدر ما لديَّ من قدرات، وكنت أدهش كلما حصلت على جائزة أو منحة دراسية، لقد حصلت على جوائز بعد أن تجاوزت الصف الثاني كما سبق القول في الصفين الخامس والسادس حصلت على المنح الدراسية السابق الإشارة إليها، وقد كنت أدافع عن تفوقي بغيرة شديدة، كنت أذرف الدمع إذا شاب تفوقي شيء ولو شائبة ضئيلة، لم أكن أحتمل استحقاقي للتعنيف أو أن يرى المعلمون أنني أستحق التعنيف، تحضرني واقعة تلقيت فيها عقاباً بدنياً، ولم يكن العقاب هو ما آلمني، ولكن استحقاقي لذلك العقاب، فقد أخذت أبكي بمرارة، وكانت تلك الواقعة في أثناء دراستي في الصف الأول أو الثاني، وقد حدثت لي واقعة أخرى في دراستي بالصف السابع وكان السيد دورابجي أدولجي جيمي يشغل منصب مدير المدرسة آنذاك،

وقد كان السيد دورابجي معروفاً بين الطلبة بكونه شخصية نظامية ومنهجية، وبكونه مُعلما جيداً، وقد جعل التربية الرياضية والكريكيت إلزامية على الأولاد في الصفوف المتقدمة، وقد كنت أمقت رياضة الكريكيت أو كرة القدم، ولم أشارك قط في أي منهما قبل أن تُصبح إلزامية، وكان خجلي أحد الأسباب التي منعتني من المشاركة في تلك الرياضة، وقد اتضح لي الآن أنني كنت مخطئاً، فقد كان لديَّ مفهوم خاطئ حينها مفاده أن التربية الرياضية لا علاقة لها بالتعليم، أما الآن فأنا على يقين من أن التربية الرياضية يجب أن تحظى كمادة أساسية في برامج التعليم بنفس الاهتمام الذي تحظى به التربية الذهنية، ولكنني مع ذلك لم أتضرر نتيجة لامتناعي عن التدريبات، ويرجع ذلك إلى قراءتي في بعض الكتب عن فوائد السير لمسافات طويلة في الهواء الطلق، فأصبح السير من عاداتي التي لا أزال أحرص عليها، وقد منحتني ممارستي لرياضة المشي بنية قوية بقدر ما وكان يرجع عدم اكتراثي بالتربية الرياضية إلى رغبتي الشديدة في العناية بوالدي، ففور انتهاء المدرسة، كنت أهرع إلى البيت وأبدأ في خدمته، وكان التدريب الإلزامي الذي فرضه مدير المدرسة يحول بيني وبين تأدية هذه المهمة، ولقد طلبت من السيد جيمي مدير المدرسة أن يُعفيني من التربية الرياضية حتى أتمكن من

خدمة والدي، لكنه لم يبال بطلبي، وفي أحد الأيام التي ذهبنا فيها إلى المدرسة في الصباح، كان عليَّ أن أذهب من البيت إلى المدرسة مرة أخرى في الرابعة مساء لحضور درس التربية الرياضية، ولم أكن أمتلك ساعة يد، ولم أستطع تبين الوقت بالنظر إلى السماء، وهكذا وجدت أن جميع زملائي كانوا قد انصرفوا قبل وصولي إلى المدرسة، وفي اليوم التالي اطلع السيد دورابجي على قائمة الأسماء فوجدني قد تخلفت عن الحضور، وعندما سألني عن سبب تخلفي أخبرته بما حدث ولكنه أبى أن يصدقني وأمرني بدفع غرامة وصلت إلى« آنة» أو «آنتين» لا أتذكر المبلغ حالياً، ولقد اتهمني بالكذب، وهو الأمر الذي آلمني بشدة، كيف كان لي أن أثبت براءتي؟ لم يكن بيدي حيلة، فبكيت بُحرقة، وأيقنت حينها أن الشخص الصادق يجب أن يتحلى أيضاً بالالتزام، كانت هذه الواقعة أول وآخر حادثة أهمل فيها في المدرسة، وعلى ما أتذكر نجحت في النهاية في إلغاء الغرامة التي كان قد فرضها عليَّ، وأُعُفيت من التدريب أيضاً، حيث إن والدي كتب إلى مدير المدرسة بنفسه يُخبره بحاجته إليَّ في البيت بعد انتهاء المدرسة، ولم أتأثر نتيجة لإهمالي للتدريبات، ولكنني لا أزال مع ذلك أدفع ثمن إهمالي لشيء آخر، فلا أدري من أين تكونت لديَّ فكرة أن الخط الجيد في الكتابة لا يمثل جزءاً ضرورياً من

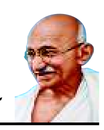
عملية التعليم على كل حال.. لقد لازمتني هذه الفكرة حتى رحلت إلى إنجلترا، وعندما رأيت فيما بعد ما يتمتع به المحامون الشباب الذين وُلدوا وتلقوا تعليمهم في جنوب أفريقيا من خط جميل في الكتابة وشعرت بالخجل من نفسي، وندمت على إهمالي لتحسين خطي في الكتابة، وأعتقد إن الخط السيئ يُشير إلى عدم تلقي تعليم كامل، ولقد حاولت بعد ذلك العمل على تحسين خطي في الكتابة لكن بعد فوات الأوان. فلم أستطع قط أن أصلح ما أفسده تقصيري في شبابي، فليأخذ كل شاب وفتاة عبرة مما حدث لي، وليعلموا أن الخط الجيد في الكتابة هو جزء لا يتجزأ من التعليم، وأعتقد أن على الأطفال تعلم فن الرسم قبل تعلم الكتابة، يجب أن يتعلم الطفل الحروف بالمشاهدة كما يتعلم غيرها من الأشياء المادية مثل الزهور والطيور وغيرها، ويجب أن يتعلم الكتابة بعد أن يتعلم رسم الأشياء المادية ولسوف يكتب وقتها بخط جميل.

ويضيف «غاندي» قائلاً في سرد سيرته الذاتية: ـ

حدثت واقعتان أخريان في أيام الدراسة يستحقان الذكر في هذا السياق، فقد سبق أن ذكرت أنني أضعت سنة دراسية بسبب زواجي، لكن مُعلمي أرادني أن أعُوض تلك السنة بتخطي صف دراسي، وهو امتياز يُمنح غالباً للطلبة المجتهدين، وبناء على ذلك

قضيت ستة أشهر فقط في الصف الثالث ثم انتقلت إلى الصف الرابع بعد الامتحانات التي تعقبها العطلة الصيفية، وأصبحت اللغة الإنجليزية هي لغة التدريس في مُعظم المواد الدراسية بداية من الصف الرابع، فوجدت نفسي في ضياع تام، وكان علم الهندسة مادة جديدة ومن الصعب عليَّ تعلمها، وزاد تدريسها باللغة الإنجليزية من صعوبة الأمر، لقد كان المُعلم يشرح المادة بصورة جيدة، ولكنني لم أستطع متابعته، وكنت في أحيان كثيرة أفقد الأمل وأفكر في العودة إلى الصف الثالث مُحدثا نفسي بأن تكديس مواد سنتين دراسيتين في سنة واحدة أمر بالغ الطموح، ولكنني إن فعلت ذلك فلن أجلب العار على نفسي فقط بل على المُدرس الذي وثق باجتهادي وأوصى بنقلي إلى الصف التالي، وأدى خوفي من ذلك الخزي المضاعف إلى استمراري في الصف ذاته، وعندما وصلت إلى مسلمة «نظرية» إقليدس الثالثة عشرة بعد جهد مُضني تجلت لي بساطة المادة، فأي مادة تتطلب من الشخص استخداماً بسيطاً لقدراته الاستدلالية لا يُمكن أن تُعتبر صعبة، ومنذ ذلك الحين أصبحت الهندسة سهلة وممتعة.

ومع ذلك وجدت أن تعلم اللغة السنسكريتية مهمة أصعب، ففي الهندسة لم أكن أحفظ شيئاً أما في اللغة السنسكريتية فكنت أرى أن



عليَّ حفظ كل شيء عن ظهر قلب، وقد بدأت في دراسة هذه المادة بداية من الصف الرابع أيضاً، وعند دخولي الصف السادس كنت مثبط الهمة، وكان المُدرس شديداً في تعامله معنا ويثقلنا بالواجبات المدرسية، وكان هناك نوع من المنافسة بين مُدرس اللغة السنسكريتية ومدرس اللغة الفارسية، فقد كان مدرس اللغة الفارسية متساهلاً، واعتاد الطلبة أن يتحدثوا عن سهولة اللغة الفارسية وبراعة مدرسها ومدى مراعاته للطلبة، واستهوتني «السهولة» التي كانوا يتحدثون عنها فجلست في يوم من الأيام في فصل اللغة الفارسية الأمر الذي أحزن مدرس اللغة السنسكريتية بشدة، فدعاني إلى جانبه وقال لي: «كيف نسيت أنك ابن لأب من أتباع الإله فيشنو؟ ألن تتعلم لغة ديانتك؟ أخبرني إذا كنت تواجه أية صعوبة، فأنا أريد أن أعلمكم اللغة السنسكريتية قدر استطاعتي، وكلما تعمقت في هذه اللغة اكتشفت أموراً ممتعة يجب عليك ألا تُحبط، عُد واجلس في حصة اللغة السنسكريتية» ويواصل غاندي سرد السيرة الذاتية الخاصة به قائلاً: -

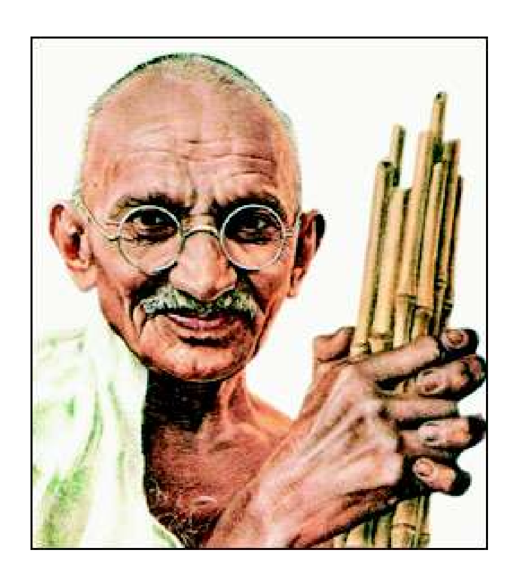
لقد شعرت بالخجل من تلطفه معي ولم أستطع تجاهل تأثره، والآن أشعر بالعرفان بالجميل لمدرسي «كريشنا شانكر بانديا» فلولا القدر اليسير من اللغة السنسكريتية الذي تعلمته حينذاك، لكان من

الصعب عليَّ الاطلاع على أي من كتبنا المقدسة، في الحقيقة أشعر بندم عميق لعدم إلمامي باللغة بطريقة أفضل لأنني أدركت منذ ذلك الحين أنه يجب على كل فتى وفتاة ينتمون إلى الهندوسية أن يمتلكوا معرفة سليمة باللغة السنسكريتية في رأيي، ينبغي أن تحتوي مناهج التعليم العالي على اللغات الهندية والسنسكريتية والفارسية والعربية والإنجليزية، وذلك بالطبع بالإضافة إلى اللغة المحلية، ولا داعي لأن تثير هذه القائمة من اللغات المخاوف، فلو أصبح التعليم لدينا نظامياً ولا يُعاني الطلاب فيه عبء تعلم جميع المواد الدراسية بلغة أجنبية، لكان من السهل عليهم تعلم جميع هذه اللغات، وكانوا سيجدون في تعلمها متعة مطلقة، فالمعرفة العلمية بلغة تجعل معرفة غيرها من اللغات أسهل نسبيا.

ويضيف «غاندي» في حديثه عن التعليم في الهند قائلاً: -

في الواقع، يمكن أن نعتبر اللغات الهندية والجوجراتية والسنسكريتية لغة واحدة والفارسية والعربية أيضا لغة واحدة فهناك علاقة وطيدة بين اللغتين الفارسية والعربية مع أن اللغة الفارسية تنتمي إلى عائلة اللغات الهند وأوربية «الآرية»، وتنتمي اللغة العربية إلى عائلة اللغات السامية، وترجع هذه العلاقة إلى أن كلتا اللغتين وصلتا إلى أوجهما عن طريق نهضة الإسلام، لم أعتبر اللغة الأردية

لغة مستقلة حيث إنها تبنت قواعد النحو الخاصة باللغة الهندية، وتتكون مفرداتها بصورة رئيسية من مفردات اللغتين الفارسية والعربية، وعلى مَنْ يرغب في تعلم اللغة الأردية بطريقة سليمة أن يتعلم اللغتين الفارسية والعربية، ويجب أيضا على مَنْ يرغب في تعلم اللغة الجوجراتية أو الهندية أو البنغالية أو الماراثية بصورة سليمة أن يتعلم اللغة السنسكريتية.



حدث مأساوي

يتحدث المهاتما غاندي عن حدث مأساوي كما سماه عنوانا لذلك الفصل ولكنه في الواقع لم يكن حدث مأساوي على الإطلاق بل كان تقدير خاطئ منه لصديق له فيقول: .

من بين أصدقائي القليلين في المدرسة الثانوية، كان هناك في فترات مختلفة اثنان يمكن أن أعتبرهما صديقين حميمين لم تستمر واحدة من هاتين الصداقتين طويلاً مع أنني لم أتخل عن أصدقائي قط، لقد تركني صديقي الأول لأنني صادقت الآخر، تلك الصداقة الأخيرة أعتبرها مأساة في حياتي، فقد دامت طويلًا وعشتها بروح المُصلح.

وكان رفيقي هذا في الأصل أحد أصدقاء أخي الأكبر وكان زميلاً له في الصف الدراسي، وكنت على دراية بمساوئه، ولكنني كنت أرى فيه صديقا وفياً، حذرني كل من والدتي وأخي الأكبر وزوجتي من رفقته، ومنعني كبريائي من الإنصات إلى تحذير زوجتي لكنني لم أجرؤ على معارضة رأي أمي وأخي الأكبر ومع ذلك دافعت عن نفسي أمامهم قائلًا: «أعلم أن به ما ذكرتم من مساوئ لكنكم لا تعلمون

فضائله، لا يُمكنه أن يضلني عن طريق الصواب، لأن علاقتي به هدفها أن أقُوم معوجه، وأنا على يقين من أنه سيصبح إنسانا عظيماً عندما أصلح من سلوكياته، أرجوكم لا تقلقوا بشأني...

ويضيف غاندي قائلاً:.

ولا أعتقد أن دفاعي قد أقنعهم، لكنهم قبلوا تبريري للموقف، وتركوني أسلك الطريق الذي اخترته، وبعد ذلك اكتشفت أنني أخطأت في تقدير الأمور فلا يُمكن للمُصلح أن يكون على علاقة وثيقة بالشخص الذي يسعى إلى إصلاحه، فالصداقة الحقيقية تعتمد على تطابق أرواح نادراً ما يوجد هذا في هذا العالم الذي نعيشه حالياً ولكن لن تكون ذات قيمة أو تدوم سوى بين الطبائع المتآلفة، ويؤثر الأصدقاء بعضهم في البعض، فلا يوجد إذن سوى مجاز ضئيل للغاية للإصلاح، وأرى أنه يجب تجنب الصداقات المستأثرة التي تحول دون مصادقة سائر البشر، فالإنسان يميل إلى الرذيلة أكثر منه إلى الفضيلة، والشخص الذي يتخذ من الإله صديقا له عليه أن يظل وحيدا أو أن يتخذ العالم كله صديقا له، ورأيي هذا قد يُحتمل الخطأ، لكن أثبتت لي التجربة أن جهودي لترسيخ صداقة وطيدة باءت بالفشل.

كانت هناك موجة من الإصلاح تجتاح «راجكوت» في الوقت الذي تعرفت فيه إلى صديقي هذا، وأخبرني صديقي بأن هناك العديد من مدرسينا يأكلون اللحم ويشربون الخمر سراً، وقد ذكر لي العديد من الأسماء لأناس مشهورين في «راجكوت» وأخبرني أنهم ينتمون لنفس تلك المجموعة، وأخبرني أيضاً أن من ضمن هذه المجموعة طلبة من المدرسة الثانوية.

ولقد أذهلني ما أخبرني به صديقي وجعلني أشعر بالألم، وسألت صديقي عن السبب وراء ذلك كله، فأجابني قائلاً: ـ «نحن شعب ضعيف لأننا لا نأكل اللحم، ويقدر الإنجليز على حكمنا وإخضاعنا لأنهم يأكلون اللحم، وبالطبع تعلم كم أحتمل المشقات بالإضافة إلى كوني عداءً سريعاً كل ذلك لأنني آكل اللحم، إن آكلي اللحوم لا يُصابون بالبثور أو الأورام، وحتى إذا أصيبوا بها فلا تلبث أن تلتئم بسرعة، إن مدرسينا وغيرهم من الأشخاص البارزين ممن يأكلون اللحم ليسوا بمغفلين، بل هم على علم بفوائد اللحم، ويجب عليك أنت أيضاً أن تفعل مثلهم، فلا شيء أفضل من التجربة، جرب أكل اللحم وسوف ترى القوة التي سيمنحك إياها».

ويواصل «غاندي» سرد مذكراته وسيرته الذاتية عن صديقه هذا وأكل اللحوم قائلاً: .

هذه القائمة من الدفاعات عن أكل اللحوم لم أتلقاها في لقاء

واحد، وإنما هي خُلاصة جدال طويل ومفصل كان يحاول صديقي أن يفرضه عليَّ من وقت إلى لآخر، وقد اقتنع أخي بوجهة النظر تلك وانضم إلى تلك المجموعة، ومن ثَمَّ كان يدعم وجهة نظر صديقي.

وبالطبع كنت أبدو ضئيل الجسم مقارنة بأخي وصديقي هذا، فقد كانا أكثر شجاعة وقوة وجرأة، لقد فتنتني مناقب صديقي هذا، فقد كان يستطيع العدو لمسافات طويلة وبسرعة فائقة، وكان ماهراً في القفز الطويل، والوثب العالي، وكان يستطيع تحمل أي قدر من العقاب البدني، وكان كثيرا ما يستعرض مناقبه أمامي، وكنت أنبهر به كأي إنسان ينبهر عند رؤية الصفات التي تنقصه في غيره وتبع ذلك الانبهار رغبة في أن أصبح مثله، فقد كنت لا أستطيع القفز أو الركض مثله، فلماذا لا أكون بنفس قوته؟، علاوة على ذلك، كنت جبانا، فقد كان يغشاني الخوف من اللصوص والأشباح والأفاعي وهكذا كنت لا أستطيع النوم دون إضاءة الغرفة، وكيف أستطيع أن أبوح بمخاوفي لزوجتي التي تنام بجانبي، ولم تكن في ذلك الوقت طفلة، بل كانت على أعتاب مرحلة الشباب؟! كنت أعلم أنها أكثر شجاعة مني، مما جعلني أشعر بالخزي، ولم تكن زوجتي تخاف الأفاعي أو الأشباح، وكان يمكنها الذهاب حيثما شاءت في الظلام، وكان صديقي يعلم عني كل جوانب الضعف هذه، وكان يخبرني أنه يستطيع الإمساك

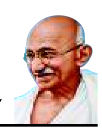
بأفعى حية بيده، وأن يهزم اللصوص، وأنه لا يهاب الأشباح، وبالطبع كان ذلك كله ثمرة أكله للحم كما كان يقول ويبرهن...

كانت هناك أبيات هزلية للشاعر الجوجراتي «نارماد» شائعة بين الطلبة، تقول:

«انظر إلى الإنجليز الأقوياء، يحكمون الهنود الضعفاء، يأكلون اللحم وينعمون، طولهم خمسة أذرع ويزيدون»...

كان لهذا كله أثر مباشر عليَّ، لقد تكونت لديَّ قناعة تدريجية بأن أكل اللحم أمر حسن، وأنه سيجعلني قوياً وشجاعا وأنه إن واظب الشعب كله على أكل اللحم فسوف نقهر الإنجليز..

وعليه جرى تحديد يوم لبداية التجربة، ولكن كان يجب أن تكون سراً، فقد كانت عائلة «غاندي» من أتباع الإله «فيشنو» وكان والداي خاصة مخلصين لديانتهما وكانا يزوران معبد «هافيلي» بانتظام، وكان للعائلة المعابد الخاصة بها، وكانت الديانة «الجاينية» منتشرة بقوة في جوجرات وكان أثرها جلياً في كل مكان وفي كل مناسبة، ولم تكن المعارضة أو البُغض الذي يكنه الجاينيون وأتباع الإله «فيشو» ضد أكل اللحم في الهند أو أي مكان آخر بالشراسة التي كانت عليها في جوجرات، وكانت هناك التقاليد التي نشأتُ وترعرعتُ في



ظلها، وقد كنت مخلصاً لوالديَّ، وكنت أعلم أن صدمتهما فيَّ ستكون قاصمة عندما يعلمون أنني أكلت اللحم، بالإضافة إلى ذلك، جعلني حُبي للصدق أكثر حذراً، لا أستطيع أن أدعي أنني لم أكن على علم بأنني سأضطر إلى خداعهما إذا بدأت في أكل اللحم، ولكن عقلي كان عازماً على «الإصلاح» ولم يكن الغرض من أكل اللحم الاستمتاع بطعمه الشهي، فلم أكن أعلم حتى أن مذاقه جيدا، لقد كان كل مُرادي أن أصبح قوياً وشجاعاً وأن يصبح كل أبناء وطني أقوياء وشجعان حتى نتمكن من هزيمة الإنجليز، وتحرير الهند، ولم أكن قد سمعت كلمة «الحكم الذاتي» بعد، ولكنني كنت أعلم معنى الحرية..

ويختتم غاندي حديثه في هذا الفصل قائلاً:ـ

لقد عمتني نوبة «الإصلاح» وعندما ضمنت سرية ما أقوم به، أقنعت نفسي بأن مجرد إخفاء أفعالي عن والديَّ لا يعني أنني غير صادق معهما...

«تابع الحدث المأساوي»

ويواصل «غاندي» حديثه في هذا الفصل مواصلاً ما أسماه بالحدث المأساوي فيقول: ـ

ثم جاء اليوم المنتظر، وإنني لأجد صعوبة في وصف حالتي حينها وصفاً دقيقاً فمن ناحية كانت هناك حماستي «للإصلاح» وحداثة فكرة القيام بتحول خطير في طريق حياتي، ومن ناحية أخرى كان هناك شعوري بالخجل نتيجة الاختباء كاللصوص للقيام بذلك العمل، ولا أدري أي الأمرين كان ذا أثر أكبر عليَّ، وأخذنا نبحث عن منطقة منعزلة على ضفاف النهر، وهناك رأيت للمرة الأولى في حياتي «اللحم» وأحضر أيضاً الخبز، ولكنني لم أستمتع بأي منهما، فقد كان لحم الماعز صلبا كالصخر، ولم أستطع أن أتناوله وكنت مريضاً فاضطررت للكف عن الأكل...

لقد عانيت في تلك الليلة كثيراً فظل يراودني كابوس كلما غفوت، كان يتراءى لي كأني عنزة حية تغثو بداخلي وتصرخ، فكنت أستيقظ فزعاً، وأشعر بالندم يغمرني، ولكنني كنت أحدث نفسي بأن أكل

اللحم إنما هو واجب، مما كان يُدخل عليَّ بعض السرور.

ـ ولم يكن صديقي من النوع الذي يستسلم بسهولة، فقد بدأ يطهو أنواعاً متعددة من الأطعمة الشهية من اللحم، ويقدمها بصورة جميلة وتغير مكان العشاء من المنطقة المنعزلة على ضفاف النهر إلى مبني المجلس التشريعي بما يحويه من صالة الطعام والطاولات والكراسي ولقد استطاع صديقي أن يصل إليه بترتيب الأمر مع رئيس الطهاة هناك..

ـ وقد كان لذلك الإغراء جليل الأثر عليَّ، فقد تجاوزت بُغضي للخبز ورأفتي بالماعز، وأصبحت من مُحبي أطعمة اللحوم، بل أصبحت محباً للحم ذاته، وقد استمر هذا الوضع لقرابة العام، ولكننا لم نحظ إلا بحوالي ست ولائم على مدار العام، ويرجع ذلك إلى أن مبني المجلس التشريعي لم يكن متاحاً في جميع الأيام، ويرجع أيضا إلى صعوبة إعداد أطعمة اللحم باهظة الثمن بصورة متكررة ولم أكن أمتلك المال اللازم لدفع مقابل هذا «الإصلاح» ولذلك كان على صديقي دائما أن يجد المال الكافي، ولا أعلم من أين كان يأتي بالمال، ولكن ما يهم في الأمر هو أنه كان يأتي به لعزمه على تحويلي إلى آكل للحوم، ولكن موارده المالية كانت محدودة لذلك كانت تلك الولائم قليلة وتقام على فترات متباعدة.

ويواصل غاندي سرد سيرته الذاتية قائلاً:.

وكلما واتتني فرصة الانغماس في مثل هذه الولائم السرية كان يستحيل أن أتناول العشاء في البيت، وكانت والدتي تطلب مني تناول عشائي، وعندما كنت أمتنع عن تناول الطعام كانت تسألني عن السبب فكنت أجيبها قائلاً «لا أشعر برغبة في تناول الطعام اليوم، وأشعر بتوعك في معدتي» كنت أشعر بتأنيب الضمير وأنا أُحيك هذه الأكاذيب، كنت أعلم أنني أكذب، وأنني أكذب على والدتي ذاتها، وكنت أعلم أنه عندما يعرف والداي أنني أصبحت من آكلي اللحوم سيصابان بصدمة شديدة، وكان علمي بذلك كله ينهش قلبي..

ويواصل المهاتما «غاندي» سرد سيرته الذاتية فيقول:.

حدثتني نفسي قائلة: «إن أكل اللحم أمر مهم، وكذلك تبني فكرة «الإصلاح» ولكن خداع المرء لوالديه والكذب عليهما أسوأ من الامتناع عن أكل اللحم، ولذلك عليَّ أن أمتنع عن أكل اللحم ما داما على قيد الحياة، وسآكل اللحم كما أشاء فقط إذا واراهما التراب، وبعد أن أصُبح حراً وحتى ذلك الحين سوف أمتنع عن أكل اللحم».

وأخبرت صديقي بالقرار الذي توصلت إليه، ومن وقتها لم أعد أتناول اللحم، ولم يعلم والديَّ قط أن اثنين من أبنائهما أصبحا من آكلي اللحوم..

إن ما دفعني للامتناع عن أكل اللحم هو صدق رغبتي في عدم الكذب على والديَّ لكنني لم أتخل عن صديقي، وقد عادت حماستي لفكرة إصلاح صديقي عليَّ بالمتاعب لكنني لم أكن على دراية بتلك الحقيقة..

وكانت تلك الصداقة ذاتها ستؤدي بي إلى خيانة زوجتي، لكنني نجوت بالكاد فقد اصطحبني صديقي في يوم من الأيام إلى أحد بيوت الدعارة وأدخلني بعد أن أخبرني ببعض النصائح والتوجيهات الضرورية وكان كل شيء مُعد سلفاً، فقد تكفل صديقي بدفع الأجر المطلوب بالفعل، وألقيت بنفسي بين براثن الرذيلة لكن الإله حماني من نفسي برحمته الواسعة، لقد جلست بجانب المرأة على فراشها في وكر الرذيلة هذا دون حراك، كأن عيناي قد عُصبت ولساني قد عُقد، وبالطبع نفد صبر المرأة، وطردتني وهي تنهال عليَّ بالسباب المُقذع وحينها شعرت أن رجولتي قد جُرحت وتمنيت لو أن الأرض انشقت وابتلعتني من شدة خجلي، لكنني بعد ذلك توجهت إلى الإله بالشكر لإنقاذي من براثن الرذيلة، وأذكر على مدار حياتي أنني تعرضت لأربع وقائع من هذا النوع، وفي معظم تلك الوقائع كانت نجاتي تأتي نتيجة حظي الحسن وليس قوة إرادتي، إذا ما نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر أخلاقية بحتة نجد أن جميع تلك الأحداث تعتبر زلات أخلاقية، فقد كانت لديَّ الرغبة الجنسية التي لا تقل إثما عن ممارسة الجنس،

ومن وجهة النظر الدنيوية العادية، يعتبر المرء الذي ينجو من ارتكاب خطيئة ناجياً، وقد نجوت بهذا المعنى فقط، وهناك بعض الأفعال التي تكون النجاة منها بمنزلة حادثة سعيدة لكل من الشخص الذي نجا والأشخاص من حوله، وفور أن يعود المرء إلى رشده، يشكر الإله على تخليصه منها برحمته، ومن المعروف أن المرء كثيراً ما يركن إلى الإغواء مهما قاومه، ولكننا نعلم أن العناية الإلهية كثيرا ما تتدخل لتخلصه بغض النظر عن أهوائه، كيف يحدث كل ذلك؟ إلى أي مدى يكون الإنسان حراً، وإلى أي مدى يتأثر بالظروف؟ وما مدى تدخل الإرادة الحرة وأين دور القدر في الأحداث؟ إن جميع هذه الأسئلة تمثل لغزاً مُحيرا وستظل كذلك إلى الأبد؟.

ويضيف المهاتما غاندي قائلاً:.

نعود إلى سرد القصة، فأذكر أن كل هذه الأحداث لم تفتح عينيَّ على الشر الذي يعود عليَّ من تلك الصداقة، ونتيجة لذلك كان في انتظاري المزيد من الأحداث المؤلمة حتى اكتشفت بعض زلاته التي لم تخطر لي ببال على الإطلاق، لكنني سوف أذكر تلك الزلات فيما بعد للحفاظ على السرد الزمني للأحداث...

ـ على كل حال، هناك أمر واحد يجب عليَّ أن أذكره الآن لأنه

يتعلق بهذه المرحلة، كانت علاقتي بصديقي هذا بلا شك أحد أسباب خلافاتي مع زوجتي، وكنت زوجاً وفياً وغيوراً في الوقت ذاته، وكان صديقي يشعل نيران الغيرة والشكوك تجاه زوجتي ولم أكن أشك مطلقا في صدقه، لم ولن أسُامح نفسي أبداً على الألم الذي كنت أسببه لزوجتي نتيجة لإصغائي لكلام صديقي، ربما لا توجد امرأة يمكن أن تتحمل كل هذه الصعاب غير الزوجة الهندية، ولذلك أعتبر المرأة تجسيدا لمعنى التسامح.

ويواصل المهاتما غاندي حديثه قائلاً:.

إذا ما اتهم خادم بغير حق، فسيترك وظيفته، وكذلك إذا اتُهم ابن فسيفر من منزل والده، وأيضا إذا اتهم الصديق فسينهي تلك الصداقة، أما الزوجة إذا ما شكت في زوجها ستلزم الصمت ولكن إذا شك فيها زوجها فستكون نهايتها، فأين يمكن أن تذهب؟ لا تستطيع الزوجة الهندية أن تطلب الطلاق في المحاكم، فالقانون لا يحميها ولا أستطيع أن أنسى أو أن أغفر لنفسي ما سببته لزوجتي من تعاسة.

ـ لقد تخلصت من آفة الشك هذه عندما أدركت فحوى كلمة «أهيمسا» بكل ما تحمله من معان، ورأيت وقتها عظمة «البراهماشاريا»

وأدركت أن الزوجة ليست جارية لدى زوجها بل رفيقته ومعينته وشريكته في السراء والضراء وتتمتع بنفس القدر من الحرية الذي يتمتع به الزوج في اختيار طريقة حياتها، كلما تذكرت تلك الأيام المظلمة شعرت بالاشمئزاز من حماقتي وقسوتي الشهوانية وشعرت بالأسف الشديد لثقتي العمياء بصديقي..



«السرقة والتكفير عنها»

أرى أنه يجب علي أن أروي بعض حالات الضعف التي مررت بها أثناء مدة أكل اللحم تلك والمدة التي سبقتها أيضا والتي تعود إلى وقت ما قبل زواجي أو بعد زواجي بوقت قصير.

كنت أنا وقريب لي مولعين بالتدخين، ولم يكن حبنا للتدخين بدافع اقتناعنا بوجود فائدة للتدخين أو لإعجابنا برائحة السجائر مثلا وإنما ببساطة كان نتيجة لاعتقادنا بأن انبعاث سحاب الدخان من أفواهنا يشعرنا بالسرور. اعتاد عمي أن يدخن السجائر وعندما رأيناه يدخن ظننا أنه يجب علينا أن نحذو حذوه وكنا لا نملك المال ومن ثَمَّ بدأنا في سرقة أعقاب السجائر التي يلقيها عمي.

لم تكن أعقاب السجائر متوفرة باستمرار ولم تكن تبعث دخانا كثيفا فبدأنا نسرق قطع النقود النحاسية من جيب الخادم كي نشتري السجائر الهندية ولكن كان ما يحيرنا دائما هو المكان الذي سنحتفظ فيه بالسجائر، بالطبع كنا لا نستطيع أن ندخن في حضور الكبار. ولقد استطعنا أن نعتمد لبضع أسابيع على تلك النقود التي سرقناها

وعندما سمعنا أن سيقان إحدى النباتات مسامية ويمكن أن تستخدم للتدخين كالسجائر حصلنا عليها وبدأنا في تدخينها.

ولكننا لم نكن قانعين بمثل هذه الأشياء. بدأت رغبتنا في الاستقلال تؤلمنا ولكننا لا نستطيع احتمال فكرة الحصول على إذن من الكبار قبل القيام بأي عمل في نهاية الأمر ومع كرهنا التام لذلك قررنا الانتحار!

ولكن كيف ننتحر؟ ومن أين نأتي بالسم؟ علمنا أن بذور نبات الدانورة تعد سما فعالا، فذهبنا بعيداً إلى الغابة بحثا عن هذه البذور حتى حصلنا عليها وكان المساء هو الوقت المناسب لإنجاز الأمر فذهبنا إلى معبد كيدارجي ووضعنا السمن في مصباح المعبد وأخذنا البركة ثم اتجهنا إلى أحد جوانب المعبد المنعزلة، ولكننا لم نكن نمتلك الشجاعة الكافية للانتحار فماذا يحدث لو لم نمت على الفور؟ وما الفائدة من قتل أنفسنا؟ أليس من الأولى أن نتحمل حريتنا المقيدة؟ ومع ذلك تناولنا بذرتين أو ثلاث من البذور السامة ولم نستطع أن نتناول أكثر من ذلك وتجنب كل منا مواجهة الموت وقررنا الذهاب إلى معبد رامجي لنستجمع قوانا ونصرف فكرة الانتحار عن أذهاننا أدركت حينها أن الإقدام على الانتحار ليس بقدر سهولة التفكير فيه ومنذ ذلك الحين وأنا قلما أتأثر عند سماعي لشخص

يهدد بالانتحار أو لا أتأثر بالمرة.

أدت فكرة الانتحار بصورة أساسية إلى إقلاعنا عن عادة همجية وقذرة هي تدخين أعقاب السجائر وعن فكرة سرقة نقود الخادم من أجل شراء السجائر.

ومنذ بلوغي لم أرغب في التدخين وطالما اعتبرت التدخين عادة همجية وقذرة وضارة بالصحة ولم أستطع قط أن أفهم سبب الرغبة العارمة في التدخين التي تسود العالم فأنا لا أستطيع تحمل السفر في عربة مليئة بالمدخنين فهذا يصيبني بالاختناق ولكن هناك سرقة ارتكبتها فيما بعد وكانت أشد خطورة من سالفتها فقد سرقت قطع النقود النحاسية من الخادم عندما كان عمري اثنتي عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو ربما أقل أما هذه السرقة فقد ارتكبتها في سن الخامسة عشرة هذه المرة. كان أخي آكل اللحم يرتدي سوارا تتدلي منه قطع ذهبية فسرقت قطعة منها وكان أخي مديناً بمبلغ خمس وعشرين روبية وكان مع ذلك يرتدي في ذراعه سوارا من الذهب الخالص. ولم يكن من الصعب أن أنتزع جزءا ضئيلًا منه. لقد ارتكبت السرقة وأديت دين أخي. لكن الأثر الذي خلفته السرقة علي كان فوق طاقتي وقررت عدم السرقة مرة أخرى أبدا، وفكرت في الاعتراف لوالدي بما حدث ولكنني لم أجرؤ على إخباره، ولم يكن رجوعي عن

إخباره بالسرقة نتيجة خوفي أن يضربني فلا أذكر أنه ضرب أيا منا وإنما كان ذلك نتيجة لخوفي عليه من الألم الذي سيصيبه مع ذلك شعرت أن عليَّ أن أتحمل المخاطرة فلا تطهير من الإثم دون اعتراف صريح به.

في نهاية الأمر قررت أن أكتب الاعتراف وأسلمه إلى والدي طالبا منه العفو عني فكتبت الاعتراف على قطعة من الورق وسلمته إياها بنفسي لم تكن هذه الورقة مجرد اعتراف مني بذنبي وناشدت والدي فيها أن يعاقبني بالجزاء الذي يتناسب وذنبي وختمت اعترافي برجائي له ألا يعاقب نفسه على جريمتي وقد أخذت على نفسي بألا أسرق بعد ذلك أبدا.

كانت فرائصي ترتعد وأنا أسلم والدي الاعتراف كان والدي وقتها يعاني الناسور وكان أسير الفراش الذي كان لوحاً خشبياً بسيطاً فسلمته الورقة وجلست في الجهة المقابلة للفراش.

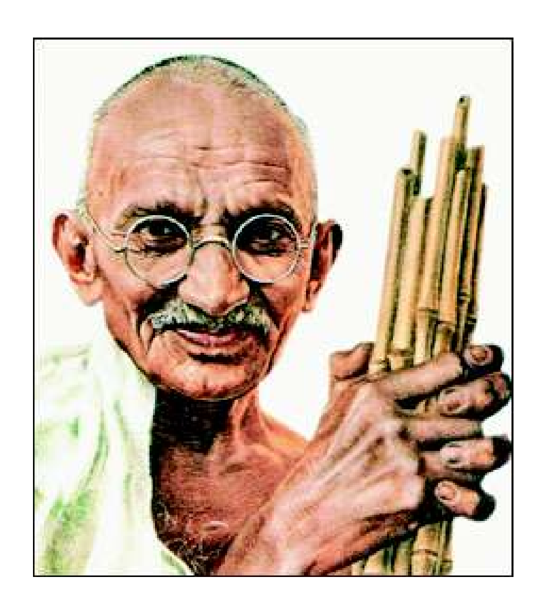
«السرقة والتكفير عنها»

قرأ والدي الورقة مباشرة دون توقف ورأيت دموعه المتلألئة تسيل على خديه مبللة الورقة وأغلق والـدي عينيه للحظة وأخذ في التفكير ثم مزق الورقة وبعد أن كان قد اعتدل في جلسته لكي يقرأها عاد ليستلقي لقد بكيت أنا الآخر، فقد كنت أشعر بمدى تألم والدي ولو كنت رساما لصورت ذلك المشهد بالكامل اليوم. فلا يزال المشهد حياً في ذاكرتي طهرت دموع والدي المتلألئة المليئة بالحب قلبي، ومحت خطيئتي ولا يستطيع أن يفهم هذا الحب إلا من عاشه كما تقول الترانيم: « لا يعلم قوة الحب إلا من أصيب بسهامه»

كان هذا درساً واقعياً في مذهب الأهيمسا. في ذلك الوقت لم أكن أرى فيما فعله والدي إلا حُب الأب لابنه، لكنني الآن أعلم أن ما فعله كان تطبيقا خالصاً للأهيمسا فعندما تصبح هذه الأهميسا شاملة تعمل على تغير كل شيء تقترب منه ولا يكون هناك حد يقيد قواها.

لم يكن هذا النوع من المغفرة السامية من طبائع والدي. كنت

أظنه سيغضب مني ويسبني بكلمات جارحة ويضرب جبينه حزناً ولكن على عكس ذلك كان هادئا للغاية الأمر الذي يعود في رأيي إلى اعترافي الصريح فأظهر اعتراف ذلك الذي يكون صريحاً ومتضمنا لوعد بعدم العودة إلى ارتكاب تلك الخطيئة. والذي يدلي به أمام الشخص المستحق له وأنا على يقين بأن اعترافي جعل والدي يثق بي تماماً وأنه زاد من حبه لي إلى أقصى مدى.



«وفاة والدي والخزي المضاعف»

كنت آنذاك في السادسة عشرة من عمري وكان والدي كما ذكرت طريح الفراش إثر إصابته بالناسور وكنت أنا ووالدتي وخادم كبير السن نقوم على خدمته، كنت أقوم بمهام التمريض ولا سيما تضميد جراحه، وإعطائه الأدوية وتركيبها في المنزل عند الضرورة كنت أقوم بتدليك ساق والدي كل ليلة ولا أذهب إلى فراشي إلا عندما يطلب مني هو ذلك، أو بعد أن يغلبه النعاس لقد كنت أعشق قيامي بهذه الخدمة، ولا أذكر أنني قد غفلت عنها قط. وكنت أقسم كل وقتي ـ بعد أداء الواجبات اليومية ـ بين المدرسة وخدمة والدي. وكنت أخرج للتنزه ليلاً فقط إذا سمح لي والدي بذلك أو عندما يشعر بتحسن حالته كنت وزوجتي في تلك المرحلة في انتظار ميلاد طفلنا الأول وهو الأمر الذي أراه اليوم خزيا مضاعفاً فمن ناحية لم أستطع التحكم في شهوتي، وهو ما كان ينبغي لي فعله إذ لا أزال طالبا. ومن ناحية أخرى تغلبت شهوتي على واجبي تجاه دراستي بل أثرت في ما هو أعظم من ذلك. بري بوالدي فقد كان شرفي ومثلي الأعلى منذ طفولتي ففي الوقت الذي كانت فيه يداي مشغولتين بتدليك

ساقي والدي كنت أسبح بخيالي نحو غرفة النوم كل ليلة وحدث هذا في زمن كان الدين والطب والمنطق على حد سواء يمنعون ممارسة الجنس كنت أشعر بالبهجة عند الانتهاء من مهامي فأهرع مباشرة إلى غرفة النوم بعد أن أنحني إجلالا لوالدي.

كانت حالة والدي في تلك الأثناء تتدهور يوماً بعد يوم، وجرب المتخصصون في علم الطب الهندي «آيورفيدا» جميع الدهانات الطبية واستخدم الأطباء اللاصقات الطبية، واستخدم الدجالون المحليون عقاقيرهم السرية وقد قام جراح إنجليزي بفحص والدي وأوصى بخضوع أبي لعملية جراحية بعد أن فشلت جميع الوسائل العلاجية الأخرى ولكن طبيب العائلة رفض خضوع والدي للعملية في هذه السن المتقدمة. كان ذلك الطبيب متخصصاً ومشهوراً فرجح رأيه في النهاية على رأي الجراح الإنجليزي وتخلينا عن فكرة إجراء العملية واشترينا أنواعاً شتى من الأدوية ولكن دون جدوى أعتقد أنه إذا كان الطبيب قد وافق على إجراء العملية لكان ذلك سيساعد على شفاء جروح والدي بسهولة فقد كان الجراح الذي من المفترض أن يجري العملية من الجراحين المشهورين في بومباي ولكن كان للإله مشيئة أخرى فعندما يحين الأجل لا يستطيع أي أحد مهما كان أن يفكر في العلاج الصحيح عاد والدي من بومباي ومعه جميع الأدوات

اللازمة للعملية ولكن لم يكن لذلك قيمة وقتها يئس والدي من العيش لمدة أطول فقد كانت حالته تنتقل من سيئ إلى أسوأ حتى طلب منه في نهاية الأمر أن يؤدي جميع احتياجاته الأساسية في السرير لكنه أبى أن يفعل ذلك. وكان دائما يصر على أن ينزل عن سريره مع الإجهاد الذي كان يتعرض له فقد كانت أحكام النظافة الخارجية في طائفتنا صارمة هذه النظافة أساسية بلا شك ولكن الطب الغربي توصل إلى أن جميع احتياجاته الأساسية ـ بما في ذلك الاستحمام ـ يمكن أن تؤدي في الفراش. ودون أدنى إزعاج للمريض ومع الإبقاء على السرير دائما نظيف ينبغي لي أن أعتبر هذه النظافة تتوافق تماما مع ديانة الإله فيشنو كنت أندهش من إصرار والدي على مغادرة السرير ولم أملك إلا الإعجاب بذلك.

ثم جاءت الليلة المشئومة كان عمي في ذلك الوقت في راجكوت أذكر أنه حضر إلى راجكوت إثر علمه باشتداد المرض على والدي كان والدي وعمي شديدا التعلق ببعضهما كان عمي يصر على الجلوس بجوار سرير والدي طوال اليوم والنوم بجانب سريره بعد أن يطلب منا الذهاب للنوم، لم يكن أحد يتوقع أن تلك هي الليلة الموعودة لكننا كنا نعلم بالطبع أن حياة والدي في خطر.

كانت الساعة تقترب من العاشرة والنصف أو الحادية عشرة

مساء وكنت أدلـك والـدي، فعرض عليّ عمي أن يدلكه بـدلا مني فشعرت بالسعادة وذهبت من فوري إلى غرفة النوم، وكانت زوجتي قد عاجلها النعاس لكن كيف لها أن تنام وأنـا موجود؟ فأيقظتها ولم تمر سوى خمس أو ست دقائق حتى قرع الخادم الباب فهببت مذعوراً فحدثني الخادم قائلا استيقظ إن المرض قد اشتد على والدك كنت أعلم بالطبع أن والدي شديد المرض لذلك حدثت وقتها ما وراء هذا الجملة من معان فقفزت من على سريري وسألته:

ما الخطب؟ أخبرني؟

فأجابني قائلا: «لقد توفي والدك»

انتهى كل شيء لم أملك إلا أن أشعر بالندم لقد تملكني شعور عميق بالخزي والألم وهرولت إلى حجرة والدي. أدركت حينها أنه لولا شهوتي لما كنت عانيت عذاب البعد عن والـدي في لحظاته الأخيرة في الدنيا، فقد كان من المفترض أن أكون بجواره وقتها أدلكه وأن يموت بين ذراعي ولكن قدر لعمي أن يحظى بهذا الشرف لقد كان عمي شديد الوفاء لأخيه الأكبر مما جعله يستحق شرف أن يكون آخر من قام على خدمته كان والـدي قد شعر باقتراب موته فأشار طالبا ورقة وقلم وكتب « أعدوا الطقوس الأخيرة» وقد انتزع تعويذته من ذراعه وكذلك قلادته الذهبية المصنوعة من خرز

الريحان وألقاهما جانبا ثم ما لبث أن فارق الحياة بعد ذلك بلحظات.

كان الخزي الذي أشرت إليه هو الخزي من شهوتي التي سيطرت عليَّ حتى في الوقت العصيب الذي توفي فيه والدي الذي كان يحتاج لخدمة يقظة، هذه الواقعة وصمة عار لم أستطع أن أمحوها أو أنساها قط كنت دائما ما أقول لنفسي مع أن بري بوالدي لم يعرف أي حدود ومع أنني كنت على استعداد للتضحية بأي شيء من أجلهما فقد كان هناك ما فاق ذلك البر الذي لم أجد مبرراً لانهياره وذلك لأن الشهوة كانت مسيطرة على عقلي في ذلك الوقت ولذلك السبب طالما اعتبرت نفسي زوجاً شهوانيا ولكن مخلصاً، لقد استغرقت وقتاً طويلا لأتخلص من قيود الشهوة وقد مررت بالعديد من المحن قبل أن أتغلب عليها لعلي أذكر قبل أن أختم هذا الفصل أن المولود المسكين الذي أنجبته زوجتي عانى صعوبة في التنفس لما يزيد على ثلاثة أو أربعة أيام، وماذا كنت أتوقع غير ذلك؟ فليعتبر كل زوجين مما حدث.



الفصل الثالث

«غاندي في إنجلترا»

غاندي في إنجلترا

* اقترح أحد أصدقاء الأسرة أن يسافر غاندي إلى إنجلترا ليتعلم القانون ويصبح محامياً لأن الدراسات العُليا في الهند لا تؤهل إلا لوظيفة كتبه.

* فرح غاندي بهذه الفكرة التي وافق عليها أخوه الأكبر «لاكسميداس» المحامي، ولكن أمه كانت تخشى عليه من أن يجرفه تيار المدنية وأخطار التقاليد الأوروبية فينحرف عن أصالته القومية.

* تكفل «لاكسميداس» بكل نفقات تعلم أخيه «غاندي» في إنجلترا واشترطت عليه أمه الامتناع عن إتيان ثلاث محرمات أولها تناول اللحوم وثانيها احتساء الخمور وثالثها الزنا.

* سافر غاندي إلى بومباي ليستقل الباخرة منها يوم 4 سبتمبر 1888م وقد شعر غاندي وهو طالب قانون في إنجلترا بوحدة قاتلة لابتعاده عن أمه وزوجته وابنه الرضيع.

* عاش غاندي في إنجلترا كإنسان نباتي مما عرضه لسخرية بعض زملائه ومما أضعف صحته لقسوة المناخ الإنجليزي البارد

جدا مقارنة بمناخ الهند، وعندما عرفت قدماه طريق أحد مطاعم النباتين كان سعيدا كل السعادة وأصبح من زبائنه المستديمين.

* كان غاندي في إنجلترا شديد العناية بمظهره فاهتم بأن يكون كأي جنتلمان إنجليزي في ارتدائه أحدث الملابس الإفرنجية والقبعات كما تعلم الرقص والموسيقى.

* بعد أن استقر غاندي ثلاث شهور في لندن وجد أن كل دخله الشهري لا يزيد عن جنيهان فأخذ يعد لنفسه الطعام وكان يمشي ستة عشر كيلو متر يوميا سيرا على الأقدام حتى يذهب لكليته ويعود منها.

* بذل غاندي وهو في لندن كل جهده حتى يظهر بمظهر الإنجليزي ولهذا قلد الشباب الإنجليزي في زيهم واهتم لأول مرة بشعره وكان يقوم بتفصيل أفخر الثياب عند أشهر الخياطين.

* تعلم غاندي في إنجلترا العزف على الكمان كما أخذ درساً في الخطابة ورغم كل ذلك فقد كان في داخله وفي أعماق نفسه هندياً بعيدا كل البعد عن المجتمع الإنجليزي المتحرر جداً فلم يقدر له أن ينسجم معه.

* من الطبائع التي كانت متأصلة في شخصيته هي مسألة كمية الخبز التي كان يتناولها فقد اعتاد على أكل رغيف خبز كامل

وأحيانا رغيفين في الأكلة الواحدة وليس في اليوم فعندما عاش مع أسرة إنجليزية كانت ابنتا صاحبة البنسيون تتبرعان له ببعض شرائح الخبز ولكن ذلك لم يكن يكفيه أيضا فلم يشبع وظل كذلك حتى أكتشف مطعماً نباتيا فأكل فيه وشبع..

* أفتى له بعض أصدقائه في لندن أن البيض ليس لحماً ويمكنه تناوله، وفرح غاندي بهذه الفكرة وبعد تناول كميات منه على مدى أيام تذكر أن أمه قالت له إن البيض في عداد اللحوم فامتنع عن تناول البيض..

* في إنجلترا أصبح غاندي عضوا في الجمعية النباتية في لندن وكتب مجموعة من المقالات هدفها إظهار فائدة التغذية النباتية للعقل والروح.

* قضى غاندي سنوات الدراسة في إنجلترا بنجاح ولم يكتف بقراءة كتب القانون بل أخذ دروساً في الفرنسية وعبر المانش عام 1890م ليشاهد معرض باريس ورأى برج إيفل وقال إنه ليس فيه فن وإنما فيه غرائب، وكان أعظم ما أعجب به هو كنيسة «نو تردام دي باري».

* عرف غاندي في لندن صديقاً في بنسيون نباتي ومن خلاله قرأ كتب مختلفة في مختلف الأديان ولم يكن غاندي متعصبا دينيا

وإن كان متمسكا بدينه، كان يحب جميع الناس ولا يفرق بينهم إطلاقا لأي سبب ويرى أن المنبوذين في الهند طائفة مظلومة يجب أن تتساوى في حقوقها مع غيرها.

* وبعد مضي ثلاث سنوات قضاها غاندي في دراسة القانون في لندن تخرج وأصبح محامياً وقيد اسمه في نقابة المحامين بلندن يوم 10 يونيه 1891م.

* في اليوم الثالث لتخرجه من لندن عاد إلى بلده الهند، فكانت زوجته قد أخفت عنه نبأ موت أمه وهو في إنجلترا حتى لا يؤثر ذلك على دراسته لشدة حبه لها.

* كان غاندي قد قرأ «الجيتا» مترجمة إلى الإنجليزية لأول مرة وهو في إنجلترا واعترف بأنه في شديد الأسف أنه لم يقرأها قبل سن العشرين وهي الكتاب المقدس عند الهندوس.

«راما نصير مَنْ لا نصير له»

يقول غاندي:.

* شهدت في إنجلترا أولى لحظات اكتشافي لحقيقة عبث المعرفة الدينية المجردة من التجربة العملية، ولا أعلم الأسباب التي أنقذتني من محني السابقة، فقد كنت شديد الصغر ولكنني الآن أبلغ من العمر عشرين عاماً واكتسبت مزيدا من الخبرة كزوج وأب.

* دُعيت أنا وصديق هندي في السنة الأخيرة من إقامتي في إنجلترا في عام 1890م إلى مؤتمر نباتي عُقد في بورتسماوث، وهي مدينة ساحلية تضم عدداً هائلاً من المجندين في البحرية، وتنتشر في بورتسماوث المنازل التي تقطنها سيدات سيئات السمعة ولا أقول إنهن عاهرات، ولكن من ناحية أخرى تثار حول أخلاقهن كثير من الشكوك، وقد أنزلنا القائمون على المؤتمر بأحد هذه المنازل وبالطبع لم تكن لجنة الاستقبال على علم بحقيقة المكان، فليس من السهل على مسافرين عابرين مثلنا معرفة أي المساكن حسنة السُمعة وأيها سيئ السمعة، في مدينة مثل «بورتسماوث».

* عدنا من المؤتمر في المساء وجلسنا بعد تناول العشاء للعب الورق «الكوتشينة» فانضمت إلينا مالكة المنزل، وهذا أمر مألوف في إنجلترا حتى في المنازل المحترمة، وأخذ كل لاعب في إطلاق النكات البريئة لتمضية الوقت، لكن رفيقي ومالكة المنزل أخذا في إطلاق المزاحات البذيئة، ولم أكن أدري أن صديقي ماهر في مثل هذه الأمور وقد راقتني تلك المزاحات فانضممت إليهما، وما إن هممت بتجاوز حدود الأدب وتركت أوراق اللعب، وانصرفت عن اللعبة، حتى أجرى الإله على لسان رفيقي التحذير المبارك وقال لي «من أين يأتي هذا الشر الذي بداخلك يا فتى؟.. انصرف على الفور»..

شعرت حينها بالخزي، فتقبلت التحذير وشعرت بالامتنان لصديقي وفررت من المكان حين تذكرت عهدي الذي قطعته لوالدتي، وذهبت إلى غرفتي وأنا أرتعد وقلبي يخفق كطريدة فرت من مطاردها...

* أتذكر أن هذه كانت المرة الأولى التي تثيرني امرأة غير زوجتي، لم أنم تلك الليلة وراودتني أفكار شتى فهل يجب عليَّ مغادرة هذا المنزل؟، وهل ينبغي لي أن أهرب من المكان؟، وأين كان عقلي؟، وماذا كان سيحدث لو لم أتمالك نفسي؟ فقررت من وقتها أن أتصرف بحذر أكبر.. ولا أغادر المنزل فحسب بل أغادر مدينة بورتسماوث كلها، ولم يتبق على المؤتمر سوى يومين على أكثر تقدير، فرحلت عن بورتسماوث

في الليلة التالية أما صديقي فمكث في المدينة لبعض الوقت.

* لم أكن في ذلك الوقت على دراية بجوهر الدين أو الإله وكيف يتدخل في مصائرنا، واستطعت فقط أن أدرك بصورة مبهمة أن الإله هو الذي أنقذني من هذه المحنة، وكان هو الذي طالما أنقذني من جميع محني، أعلم أن عبارة «أنقذني الإله» تحمل معنى أعمق بداخلي الآن، مع أنني لا أزال أشعر بأنني لم أدرك معناها كليا، فأنا في حاجة إلى المزيد من الخبرة كي أستطيع فهمها بصورة أكثر شمولاً لكن ما أدركه حقا هو أن الإله أنجاني في جميع المحن التي مررت بها، المحن ذات الطبيعة الروحانية، كمحامي، وعند إدارة المؤسسات، وفي السياسة، عندما كنت أفقد الأمل، وعندما يفشل الأصدقاء في مساعدتي وتتبدد محاولات مواساتي، كنت أجد العون يأتيني من العدم، التضرع والعبادة والصلاة ليست خرافات، بل هي أفعال حقيقية أكثر واقعية حتى من الأكل والشرب والجلوس والسير، ولن أكون مبالغاً إذا قلت إنها الأفعال الوحيدة الحقيقية وما عداها زائف..

* تلك العبادة أو الصلاة ليست عبارة عن فصاحة أو ثناء كاذب، بل أفعال تنبع من القلب، وهكذا، إذا ما نجحنا في تطهير قلوبنا بأن نملأها بالحب والحب فقط ونجحنا في المحافظة على جميع الأوتار في لحن متناغم، نجدها تذوب في الموسيقى مختفية بذلك

عن الأنظار، فالصلاة لا تحتاج إلى الكلام، لأنها أغنية بذاتها عن أي مجهود حسي، ولا يساورني أدنى شك حول كون الصلاة وسيلة ناجحة لتطهير القلب من الأهواء لكن يجب أن يصاحبها تواضع تام..



«نارايان همشاندرا في إنجلترا»

يقول غاندي:.

زار إنجلترا في ذلك الوقت رجل هندي شهير هو نارايان همشاندرا وقد علمت أنه يعمل كاتبا، فقابلته في منزل الآنسة «مانينج» العضوة في الجمعية الوطنية الهندية، والتي كانت على علم بعدم قدرتي على التواصل الاجتماعي، فعندما كنت أزورها، كنت أجلس دون أن أتفوه بكلمة ولا أتحدث إلا إذا خاطبني أحد، فقدمتني الآنسة «مانينج» إلى الضيف «نارايان همشاندرا» ولم يكن «نارايان» يتحدث الإنجليزية وكان زيه غريبا يرتدي سروالاً يعوزه الذوق، ومعطفاً بني اللون متسخا ورثاً على الطراز الباريسي، ولم يكن مرتديا رابطة عنق أو ياقة، وكان يرتدي قبعة من الصوف يتدلى منها زر كبير، وكان ذا لحية طويلة.

* كان «نارايان» رشيق القوام، قصير القامة، تغطي البثور الصغيرة وجهه الدائري، وأنفه بين مدببة وغير مدببة، وقد كان يمرر يده باستمرار على لحيته، كان هذا الشخص ذو المظهر الغريب والزي العجيب مميزا في مجتمع الأناقة.

* تحدثت إليه قائلًا: «لقد سمعت عنك الكثير، وقرأت بعض كتاباتك ويسُعدني أن تتكرم بزيارتي في منزلي»، وقد كان صوت «نارايان» أجش إلى حد ما فقال لي بابتسامة ترتسم على شفتيه «بالطبع يسعدني ذلك أين تقيم؟» أجابته في شارع ستور.. فاجأني بقوله: «إذن نحن جيران» وإني بحاجة إلى تعلم اللغة الإنجليزية فهلا ساعدتني؟» أجابته «يسُعدني أن أعلمك كل ما لديّ وسأبذل قصارى جهدي ويمكنني إن كنت ترغب أن آتي إلى منزلك» فاجأبني قائلاً: لا بل أنا الذي سوف آتي إليك، وسوف أحضر معي كتاب تمرينات على الترجمة.

* وهكذا حددنا موعداً، ثم أصبحنا صديقين في مدة وجيزة وقد كان «نارايان همشاندرا» جاهلاً بالقواعد النحوية فكان يعتقد أن كلمة «هورس» أي حصان «فعل» وأن الفعل «رن» بمعنى «يجري» اسم، ويحضرني العديد من الأمثلة الطريفة الأخرى لكن جهل «نارايان» لم يزعجه، ولم أستطع بما لديَّ من معرفة متواضعة بالقواعد النحوية أن أعلمه شيئاً. وبالطبع، لم يعتبر أن جهله بالقواعد النحوية يمثل أي نوع من الخجل.

قال لي بعدم اكتراث تام «لم أذهب يوماً إلى المدرسة مثلك قط» ولم أشعر قط بالحاجة إلى تعلم القواعد النحوية للتعبير عن

أفكاري حسنا هل تعرف اللغة البنجالية؟، أنا أعرفها، فقد سافرت إلى البنجال، فأنا مَنْ ترجم أعمال «ماهارشي ديفندراناث طاغور» إلى اللغة الجوجراتية، وإنك لتعلم أن ترجماتي لا تتسم بالحرفية بل دائماً ما أضفي عليها روح النص، بالطبع يمكن أن يتمكن آخرون بما لديهم من معرفة أفضل من تقديم المزيد في هذا المجال، لكنني راض عما حققته دون الحاجة إلى القواعد النحوية، فأنا أعرف اللغة الماراثية، والهندية، والبنجالية، وبدأت للتو تعلم اللغة الإنجليزية، فكل ما أحتاج إليه هو مجموعة غزيرة من المفردات ولا تظن أن طموحي سيقف عند هذا الحد.. بل أطمح في الذهاب إلى فرنسا وتعلم اللغة الفرنسية، فقد علمت أن اللغة الفرنسية غنية بالأدب، وأرغب في الذهاب إلى ألمانيا وتعلم الألمانية.

* وهكذا أخذ «نارايان» يتحدث دون توقف، فقد كان يتمتع بطموح لا حد له في تعلم اللغات والسفر.. فقلت له «لعلك سوف تذهب بعد ذلك إلى أمريكا أيضا؟» فأجاب: - بالطبع فكيف أعود إلى الهند دون أن أرى العالم الجديد... سألته: من أين لك بالمال؟.. فأجاب وما حاجتي للمال.. فأنا لست شخصا متأنقا مثلك، فيكفيني أقل قدر من الطعام والملبس، ويمكنني أن أغطي مثل هذه المصاريف من النقود التي أحصل عليها نظير كتبي ومن أصدقائي.. أنا دائما

ما أسافر في الدرجة الثالثة، وعند الذهاب إلى أمريكا سأسافر على ظهر السفينة.

* كانت بساطة «نارايان همشاندرا» فريدة وكانت تتماشى مع ما يتمتع به من صراحة ولم يشب تصرفاته أي كبرياء، ما عدا تقديره المفرط لقدرته ككاتب.

* كنا نتقابل يوميا فقد كان يجمع بين أفكارنا وتصرفاتنا قدر كبير من التوافق، وكان كل منا نباتيا، فكنا كثيرا ما نتناول الغداء معا، كانت هذه المدة هي التي كنت أنفق فيها على معيشتي 17 شلناً أسبوعيا وأطهو بنفسي، وكنت في بعض الأحيان أذهب إلى مسكنه وفي أوقات أخرى يأتي هو إلى مسكني، كنت أطهو على الطريقة الإنجليزية وكان لا يرضى بغير الطريقة الهندية ويحب تناول وجبة «الدال» الهندية، وكان يأسف على ذوقي عندما أعد شوربة الجذر أو غيرها وكان كلما وجد نبات «المنج»وهو من النباتات الهندية ذات الحبوب الصالحة للأكل طهاها وأحضرها إلى مسكني فألتهمها بشهية، وأصبح هذا نظام تبادل منتظما، فكنت آخذ أطعمتي الشهية وأذهب إليه، وكان هو يحضر أطعمته الشهية إليَّ..

* في تلك الآونة ذاع صيت الكاردينال «مانينج» في تلك الآونة فقد أسفرت مساعيه هو و «جون بيرنز» عن إنهاء إضراب

عمال الميناء، وأخبرت «نارايان همشاندرا» عن تقديري لبساطة الكاردينال، فأجابني إذن يجب أن أرى ذلك الرجل الحكيم، فقلت له إنه من الشخصيات المهمة فكيف ستستطيع مقابلته؟، فرد قائلاً «لا أجد صعوبة في الأمر، وأنا أعلم كيف سأقابله، وسأجعلك تكتب له خطابا باسمي، تخبره فيه بأنني كاتب وأريد تهنئته شخصيا على عمله الإنساني وأخبره أيضا أنني سأصطحبك معي كمترجم نظراً لعدم معرفتي باللغة الإنجليزية.

* كتبت الخطاب وفي غضون يومين أو ثلاثة أيام وصل «الكاردينال مانينج» وكان يحمل موعد لمقابلته، وعليه قمنا بزيارة الكاردينال، وارتديت حُلة الزيارات المعتادة أما «نارايان» فارتدى كعادته نفس المعطف ونفس السراويل وحاولت أن أسخر منه، ولكنه استهزأ بي قائلاً: «أنتم معشر المتمدنين جبناء، فالعظماء لا ينظرون إلى المظهر الخارجي للشخص وإنما ينظرون إلى قلبه»..

* دخلنا إلى قصر الكاردينال، ولم نكد نجلس حتى خرج علينا سيد نحيف طويل القامة وصافحنا، فتقدم «نارايان» بالتحية قائلاً:

- «لا أريد أن أضيع وقتك، لقد سمعت الكثير عنك مما أشعرني بضرورة زيارتك والتوجه إليك بالشكر على كل ما قدمت إلى العمال المضربين ويرجع سبب إزعاجي لك بهذه الزيارة إلى عادتي المتمثلة

في زيارة حكماء العالم» وبالطبع كانت هذه ترجمتي لما قاله باللغة الجوجراتية..، فرد عليه الكاردينال قائلاً: - أنا مسرور بزيارتك وأتمنى لك إقامة سعيدة في لندن وأن تختلط بالناس هنا، فليباركك الرب، ثم وقف وودعنا.

* ذات مرة زارني «نارايان» مرتدياً قميصاً و «دهوتي» وعندما فتحت له مالكة المنزل الجديدة الباب ولم تكن قد رأته من قبل، هرعت نحوي فزعة وقالت «هناك مخبول يريد أن يراك» فذهبت إلى الباب وإذا بي أجد «نارايان همشاندرا».

* لقد صدمت حقا ومع ذلك، كانت تعتلي وجهه نفس الابتسامة التي عهدتها فقلت له: «لكن ألم يسخر الأطفال منك في الشارع؟» فرد عليَّ قائلاً: «حسنا لقد ركضوا خلفي، لكنني لم آبه بهم فسكتوا عني»

* رحل «نارايان» إلى باريس بعد أن أمضى بضعة أشهر في لندن، فبدأ في دراسة اللغة الفرنسية مع ترجمة الكتب الفرنسية في الوقت نفسه، وكنت أعلم من اللغة الفرنسية ما يؤهلني لمراجعة ترجمته، لذلك كان يعرض عليَّ تراجمه لكي أقرأها ولم يكن ما يفعله ترجمة بمعنى الكلمة بل كان ينقل فحوى النص.

* وأخيراً عزم «نارايان» على زيارة أمريكا واستطاع بالكاد الحصول على تذكرة على ظهر سفينة، وقد حوكم في أمريكا بتهمة ارتداء ملابس غير محتشمة، عندما خرج ذات مرة مرتديا قميصا ودهوتي «كلوت» ولكن برئت ساحته.



«تحولات في حياتي»

يروي غاندي التحولات التي حدثت في حياته قائلاً:.

لا يجب أن يظن أحد أن تجاربي في الرقص وغيرها من الأشياء كانت مرحلة انغماس في الملذات: فحتى في تلك المرحلة سيلاحظ القارئ أنني كنت مالكا لكل قوى نفسي فلم تكن فترة هوس بهذه التجربة مملة نظرا لأنني في تلك الفترة كنت أتأمل أفكاري ومشاعري الفينة بعد الفينة. لقد كنت أسجل جميع مصروفاتي وأحسبها بدقة حتى القليل منها مثل أجرة المواصلات ورسوم البريد حتى لو كانت قطعتين نحاسيتين من النقود أدفعهما ثمنا للصحف وكان ذلك الحساب يطاردني كل يوم قبل أن أخلد إلى النوم وقد لازمتني هذه العادة منذ ذلك الحين وأعتقد أن الفضل في نجاحي في ترشيد الإنفاق في العديد من الأموال العامة التي أدرتها والتي كان حجمها يصل إلى مئات الآلاف، يرجع إلى تلك العادة وبذلك أصبح لدى جميع الحركات التي قيدتها فائض ثابت بدلا من الديون المتراكمة فليأخذ كل شاب تجربتي هذه كمثال يقتدى به فيحرص

على أن يحسب كل النقود التي يكسبها أو ينفقها وليتأكد من أنه سيكون رابحاً في النهاية مثلي.

نظراً لمراقبتي الدقيقة لأسلوب معيشتي وجدت أنه من الضروري الاقتصاد في مصروفاتي وهكذا قررت خفض نفقاتي إلى النصف كانت حساباتي مليئة بالمصروفات التي عليَّ تحملها فالعيش في منزل أسرة يعني دفع فاتورة أسبوعية بصورة منتظمة وهو ما يشتمل أيضا على دعوة أفراد الأسرة من حين إلى آخر لتناول العشاء بدافع اللياقة وكذلك حضور الحفلات معهم وكان يترتب على ذلك إنفاق مبالغ هائلة على وسائل المواصلات خاصة إذا خرجت مع سيدة: فالعادات هنا تقتضي أن يدفع الرجل جميع مصروفات المرأة أما تناول العشاء بالخارج فكان يعني تكاليف إضافية حيث لا يخصم ثمن الوجبات التي أتناولها خارج المنزل من الفاتورة الأسبوعية ففكرت في إمكانية توفير جميع هذه النفقات بالإضافة إلى النفقات التي أهدرها بحجة اللياقة الزائفة.

وكانت تلك الفكرة سبباً في اتخاذي قرار الانتقال للعيش في مسكن خاص بي بدل العيش مع أسرة، وأن أنتقل للعيش من مسكن لآخر وفقا للعمل الذي أشتغل به ومن ثَمَّ أكتسب مزيد من الخبرة في الوقت ذاته وقد أخذت مسكنًا بالقرب من العمل بحيث يمكنني

الذهاب إلى العمل مشياً على الأقدام في نصف الساعة الأمر الذي وفر لي أجرة المواصلات وفيما مضى كنت أضطر إلى استخدام وسائل المواصلات للذهاب إلى أي مكان وكنت ألتمس وقتا إضافياً لممارسة المشي فجمع النظام الجديد بين رياضة المشي والتوفير بحيث وفر لي أجرة وسائل المواصلات وضمن لي المشي لمسافة ثمانية أو عشرة أميال يومياً ويرجع الفضل الرئيسي في عدم إصابتي بالأمراض في أثناء إقامتي بإنجلترا إلى عادة المشي لمسافات طويلة، والتي منحتني أيضا بنية قوية إلى حد ما.

استأجرت مسكنا يتكون من غرفة للجلوس وأخرى للنوم وكانت هذه هي المرحلة الثانية من التحولات في حياتي أما المرحلة الثالثة فلم تأت بعد. وفرت لي هذه التغيرات التي طرأت على نمط حياتي نصف نفقاتي ولكن كيف لي أن أستغل وقتي؟ كانت امتحانات نقابة المحامين لا تتطلب الكثير من المذاكرة ولذلك كان لدي متسع من الوقت وكانت مشكلتي الأبدية تتمثل في ضعفي في اللغة الإنجليزية ولا يزال صدى كلمات السيد ليلى «الذي أصبح السير فريدريك فيما بعد» يتردد في أذني «أحصل على شهادتك الجامعية أولاً ثم أحضر لمقابلتي فكرت في أنني يجب أن أحصل على شهادة أكاديمية بالإضافة إلى طموحي في أن أصبح محامياً معترفاً به، فاستعملت

الدورات التعليمية بجامعة «أوكسفورد وكامبريدج» واستشرت عدداً من الأصدقاء فوجدت أن التحاقي بدورات أي من هاتين الجامعتين سيترتب عليه مصروفات أضخم وإقامة أطول في إنجلترا أشار عليَّ أحد الأصدقاء باجتياز امتحان القبول بجامعة لندن إذا كنت أرغب في خوض امتحان صعب، وكان ذلك يعني أنه ينبغي لي بذل الكثير من الجهد ولكنه سيؤدي في نفس الوقت إلى اكتسابي مزيداً من المعلومات العامة دون نفقات إضافية تذكر فرحبت باقتراح صديقي ولكن المنهج الدراسي أرهبني فقد كانت دراسة اللغة اللاتينية بالإضافة إلى لغة حديثة أمراً إلزاميا فكيف سأستطيع تعلم اللاتينية؟

لكن صديقي قدم تبريراً قوياً لدراسة اللغة اللاتينية فقال:

«إن اللغة اللاتينية تمثل أهمية كبيرة للمحامين: فهي تساعدهم على فهم الكتب القانونية وهناك وثيقة كاملة من القانون الروماني مكتوبة باللغة اللاتينية علاوة على أن تعلم اللغة اللاتينية سيساعدك على التمكن من اللغة الإنجليزية بصورة أكبر فعدت إلى المنزل وقررت أن أتعلم اللاتينية مهما كانت شاقة ونظراً لأنني كنت قد بدأت بالفعل في تعلم اللغة الفرنسية فقد قررت أن تكون الفرنسية هي اللغة الحديثة التي سأدرسها والتحقت بفصول خاصة للأعداد لامتحانات القبول ولم يكن يفصلني عن موعد الامتحانات التي تعقد

كل ستة أشهر إلا خمسة أشهر وكانت هذه المهمة مستحيلة تقريباً لكن طموحي أن أصبح سيداً إنجليزيا تحول إلى أن أصبح طالبا مجتهداً. وضعت جدولا زمنيا دقيقاً لمذاكرتي لكنني لم أمتلك الذكاء اللازم أو الذاكرة الكافية لتعلم اللغة اللاتينية والفرنسية بجانب المواد الدراسية الأخرى في الوقت المتبقي فما كان مني إلا أن شققت طريقي في دراسة اللغة اللاتينية بجد وكنت حزيناً، لكنني أفقد رباطة جاشي ونما لديَّ ميل للغة اللاتينية وفكرت في أن اللغة الفرنسية ستتحسن لدي إذا حاولت تعلمها مرة أخرى وقررت أن أختار مادة جديدة في مجموعة العلوم، فلم تعد الكيمياء وهي المادة العلمية التي كنت أدرسها ـ جذابة: لعدم وجود تجارب علمية، مع أنه من المفترض أن تكون دراستها مشوقة للغاية وقد كانت الكيمياء من المواد الإلزامية في الهند لذلك اخترتها ضمن مواد امتحانات القبول بالجامعة في لندن. لكن هذه المرة اخترت مادة الحرارة والضوء بدلاً من الكيمياء: لأنني سمعت عن مدى سهولتها وقد كانت كذلك بالفعل.

بذلت جهداً لجعل حياتي أكثر بساطة في أثناء استعدادي لخوض تجربة أخرى وشعرت بأن أسلوب معيشتي لا يتماشى مع الموارد المتواضعة لعائلتي لقد آلمني تخيل صورة أخي المكافح الذي لم يتوان في الاستجابة بكرم إلى طلباتي المتكررة للأموال ووجدت أن

أغلب الذين ينفقون من ثمانية إلى خمسة عشر جنيها إسترلينيا شهرياً هم الذين يتمتعون بمنحة دراسية، وكان أمامي أمثلة على أساليب معيشة أكثر بساطة فقد شاهدت عدداً ليس بقليل من الطلاب الفقراء الذين يعيشون حياة أكثر تواضعاً من حياتي، وكان أحد أولئك الطلاب الفقراء الذين يعيشون حياة أكثر تواضعاً من حياتي يعيش في غرفة في حي الفقراء تكلفة شلنين في الأسبوع، وكان يشتري وجبات طعامه من أرخص المحلات في المدينة بسعر بنسين للوجبة الواحدة التي تتكون من الكاكاو والخبز، لقد كان من الصعب على أن أحذو حذوه، لكنني فكرت في الاحتفاظ بغرفة واحدة بدلاً من غرفتين وأن أطهو بعض الأطعمة بنفسي في المنزل، فتخليت عن الغرفتين، واستبدلت بهما غرفة واحدة، واشتريت فرنا، وبدأت أطهو إفطاري في المنزل وكان إعداد الطعام للإفطار لا يستغرق أكثر من عشرين دقيقة فقد كان على فقط أن أطهو عصيدة دقيق الشوفان وأن أغلي المياه اللازم للكاكاو. وكنت أتناول الغداء خارج المنزل وفي وجبة العشاء كنت أتناول الخبز والكاكاو بالمنزل وهكذا استطعت أن أوفر من نفقاتي حتى أصبحت أعيش بتكلفة يومية تصل إلى شلن وثلاثة سنتات وكان لدي في تلك المدة كم هائل من الدراسة. لقد وفر لي أسلوب المعيشة البسيط الكثير من الوقت،

وبالفعل اجتزت امتحانات القبول.

على القارئ ألا يظن أن هذا النمط من المعيشة قد جعل حياتي موحشة بأي وجه من الوجوه. بل على العكس فقد ألف هذا التغيير بين جسدي وروحي، وكما كان هذا التغيير أكثر تمشياً مع إمكانيات عائلتي، كانت حياتي بلا شك أكثر صدقاً وغمرت روحي سعادة لا توصف.

«تجارب في الأنظمة الغذائية»

يقول غاندي في مذكراته عن «النباتية» والنباتيين:.

ـ بعد أن توغلت في البحث في أعماق نفسي، وجدت أن ضرورة التغيير الداخلي والخارجي أخذت في النمو وفور قيامي بتغييرات في نفقاتي وأسلوب حياتي بل قبل ذلك بدأت في تغيير نظامي الغذائي ووجدت أن مؤلفي الكتب التي تتناول النظام النباتي تعرضوا للقضية بكل تفاصيلها، وتناولوها من الناحية الدينية والعلمية والعملية والطبية ومن الناحية الأخلاقية توصل أولئك المؤلفون إلى استنتاج أن سيادة الإنسان على الحيوانات الدنيا لا تعني أن يفترس الإنسان تلك الحيوانات بل تعني حمايته لها وأن يكون هناك تعاون متبادل بينهما بالصورة التي يتعاونون بها بني البشر فيما بينهم، وتناولوا حقيقة أن الإنسان لا يأكل للاستمتاع بالأكل، بل ليعيش، فقام بعضهم بالامتناع ليس عن تناول اللحم فحسب بل عن البيض وشرب الحليب أيضا ومن الناحية العلمية استنتج البعض أن التكوين الطبيعي للإنسان أثبت أن طبيعته تميل إلى أكل الثمار وليس إلى الطعام

المطهو وأن الإنسان ليمكنه فقط أن يتناول الحليب من ثدي أمه ثم عندما تنمو أسنانه يبدأ في تناول الأطعمة الصلبة ومن جهة أخرى اقترح بعض الأطباء العزوف عن شتى أنواع التوابل والبهارات ووفقاً لوجهة النظر الطبية، أما بالنسبة لوجهة النظر العلمية والاقتصادية أوضح المؤلفون أن النظام الغذائي النباتي هو الأرخص وقد كان لكل هذه الأسباب أجل الأثر عليَّ وقد رأيت هذه الأنواع المختلفة من النباتين في مطاعم الأغذية النباتية. كانت إحدى الجمعيات النباتية في إنجلترا تمتلك صحيفة أسبوعية خاصة بها، فاشتركت في الصحيفة الأسبوعية ثم التحقت بالجمعية ووجدت نفسي في وقت وجيز عضوا في اللجنة التنفيذية بها، وهناك تعرفت إلى رواد النظام الغذائي النباتي وبدأت خبراتي الخاصة في علم الأغذية. توقفت عن تناول الحلوى والبهارات التي أحضرتها معي من الهند وكان تغيير آرائي وأفكاري سببا في القضاء على ولعي بالبهارات وأصبحت أستمتع بالسبانخ المسلوق دون بهارات التي كنت لا أشتهيها إن العقل هو مركز التذوق الحقيقي وليس اللسان.

لا شك أن العامل الاقتصادي كان يشغل خاطري باستمرار كان هناك في تلك الآونة آراء تنادي بضرر الشاي والقهوة وتدعو إلى تناول مشروب الكاكاو، وبما أنني مقتنع بأن على المرء أن يتناول

الأغذية والمشروبات التي تحافظ على صحته، توقفت عن تناول الشاي والقهوة بصورة عامة واستعضت عنهما بتناول الكاكاو.

* كان هناك نوعان من المطاعم التي اعتدت التردد عليهما أحدهما يقدم أي عدد من الأطعمة يختاره الزبون ويدفع ثمناً منفصلاً لكل لون من ألوان الطعام، وكان يتردد على ذلك النوع من المطاعم مَنْ هم على قدر من الغنى حيث كان العشاء هناك يكلف قرابة شلن أو شلنين، أما النوع الآخر من المطاعم فكان يقدم عشاء يتكون من ثلاثة ألوان من الأطعمة وشريحة خبز بثمن ستة بنسات وكنت عادة ما أتناول طعامي في النوع الثاني من المطاعم في المدة التي اتبعت فيها النظام الاقتصادي الصارم...

* **ويضيف غاندي قائلاً:.**

وخضت أيضاً عدداً من التجارب الثانوية إلى جانب التجربة الرئيسية مثل الإقلاع عن تناول النشويات في مرحلة ما، والعيش على تناول الخبز والفواكه فقط في مرحلة أخرى، والعيش أحيانا على الجبن والحليب والبيض، وتستحق هذه التجربة الأخيرة السرد والتوضيح.

* استمررت في هذه التجربة أقل من أسبوعين، فقد دافع المصلح المؤيد للأطعمة غير النشوية عن البيض وقال معللاً ذلك

بأنه لا علاقة للبيض باللحوم وكان من الواضح أن تناول البيض بغض النظر عن عهدي لوالدتي لا يسبب أي ضرر للكائنات الحية فاقتنعت بوجهة النظر هذه وبدأت في تناول البيض بغض النظر عن عهدي لوالدتي كما قلت سابقًا، لكن ذلك لم يدم طويلاً فأنا لا أملك الحق في إضافة تفسير جديد إلى العهد في ظل وجود تفسير والدتي له، فكنت أعلم أنها كانت تؤمن بأن البيض يدخل ضمن أطعمة اللحوم، وفور إدراكي للمعنى الحقيقي للعهد أقلعت عن تناول البيض وتخليت عن التجربة ككل.

*** ويضيف غاندي قائلاً:**

هناك نقطة تتعلق بوجهة النظر تلك أرى ضرورة ذكرها فخلال إقامتي في إنجلترا صادفت ثلاثة تعريفات للحم، أولها أن اللحم يعني لحوم الطيور والحيوانات فقط، وقد تجنب النباتيون الذين تبنوا هذا التعريف تناول لحوم الطيور والحيوانات ولكنهم تناولوا الأسماك، ناهيك عن البيض، أما التعريف الثاني فيشير إلى أن المقصود باللحم هو جميع لحوم الكائنات الحية ولذا كان السمك يدخل ضمن اللحوم وفقا لهذا التعريف ولكنه لم يدرج البيض، وأشار التعريف الثالث إلى أن جميع لحوم الكائنات الحية ومنتجاتها تندرج

تحت تعريف اللحم، ومن ثَمَّ اشتمل التعريف على البيض والحليب على حد سواء، فإذا تبينت التعريف الأول، فلن آكل البيض فحسب بل والسمك أيضاً، ولكنني كنت مقتنعاً بأن تعريف والدتي هو التعريف الملزم لي، فيجب عليَّ إذا قررت الالتزام بالعهد الذي قطعته على نفسي أن أمتنع عن تناول البيض، وكان هذا الأمر شاقاً نظراً لأنني علمت أنه حتى في مطاعم الأغذية النباتية هناك العديد من الأطعمة تحتوي على البيض، وذلك يعني أنه لو لم تتوافر لديَّ الخبرة في الحكم على الأشياء، فسأضطر إلى التحقق من مكونات الأطعمة، وهل تحتوي على البيض أم لا، وحيث إن العديد من حلوى البودنج والكعك لا تخلو من البيض، ومع أن التزامي بعهدي لوالدتي تسبب لي في هذه المشقة إلا أنه جعل طعامي بسيطا، وقد سببت لي تلك البساطة بعض الضيق حيث اضطررت إلى الامتناع عن الكثير من الأطعمة التي كنت أشتهيها إلا أن هذه الصعاب كانت عابرة حيث نتج عن التزامي الصارم بوعدي استمتاع داخلي صحي ولذيذ ودائم ومع ذلك لم تكن المشكلة الحقيقية قد ظهرت بعد، فقد كانت المشكلة الحقيقية تتعلق بوعدي الآخر، ولكن مَنْ يجرؤ على إيذاء مَنْ يعيش في حفظ الإله؟!

* قد تكون بعض الملاحظات حول تفسير العهود أو الوعود

ذات صلة في هذا السياق فلطالما كان تفسير الوعود سبباً في نشأة النزاعات في جميع أنحاء العالم، فمهما كان نص الوعد صريحاً، سيحرفه الناس، ويغيرونه ليتماشى مع مصالحهم الخاصة، ونجد هذا قائما بين جميع الطبقات الاجتماعية من غنى وفقير، وأمير وفلاح، فالأنانية تعصب أعين الناس فينخدعون أنفسهم باللجوء إلى الغموض ويحاولون خداع العالم والإله، ومن القواعد الذهبية في العهود أن تقبل بصدق تفسير الطرف الذي تعطيه الوعد، وهناك قاعدة أخرى تقول بقبول تفسير الطرف الأضعف عند وجود تفسيرين للوعد، وعند الإخلال بهاتين القاعدتين، ينشأ النزاع والظلم المتأصلان في الكذب، ويسهل على مَنْ ينشد الحقيقة وحدة أن يتبع القاعدة الذهبية دون الحاجة إلى طلب مشورة علمية حول تفسير الوعد، فكان تفسير والدتي لتعريف اللحم وفقا للقاعدة الذهبية هو التفسير الحقيقي الوحيد وليس التعريف الذي تعلمته من خبراتي الأوسع أو معرفتي الأفضل.

* **ويواصل غاندي حديثه قائلاً:.**

لقد خضت تجاربي في إنجلترا من وجهة النظر الاقتصادية والصحية، ولم أتناول المسألة من الناحية الدينية حتى رحيلي إلى

جنوب أفريقيا حيث مررت بتجارب شاقة، ولكن كل هذه التجارب كانت ثماراً لبذور غُرست في إنجلترا..

* إن حماسة المعتنق لدين جديد تكون أقوى من حماسة مَنْ ولدوا على الدين نفسه، وكانت النباتية حينها تُعد دينا جديداً على إنجلترا، وكذلك عليَّ فرأينا كيف ذهبت إلى إنجلترا وأنا مقتنع بأكل اللحم، ومن ثَمَّ تحولت معتقداتي بعد ذلك إلى النباتية، وجعلتني حماسة المعتنق الجديد للنباتية التي كانت تغمرني أقرر تأسيس جمعية للنباتيين في حي «بايزواتر» الذي كنت أعيش فيه، وقد وجهت دعوة إلى السير إدوين أرنولد الذي كان يعيش في نفس الحي ليتولى منصب نائب رئيس الجمعية، وشغل الدكتور «أولد تييلد» رئيس تحرير جريدة «ذا فيجيتريان» أي النباتية منصب رئيس الجمعية وتوليت أنا منصب أمين السر.

* كانت الجمعية في بادئ الأمر تسير على ما يرام ولكنها انهارت في بضعة أشهر، ويرجع ذلك إلى انتقالي من الحي الذي كنت أعيش فيه، وفقا لعادتي في الانتقال من وقت إلى آخر، على كل حال زودتني هذه التجربة القصيرة الأجل والمتواضعة ببعض الخبرة المتعلقة بكيفية تنظيم وإدارة المؤسسات.

الفصل الرابع

«غاندي في جنوب أفريقيا»

غاندي في جنوب أفريقيا

❋ بمجرد عودة غاندي إلى «بومباي» قادماً من إنجلترا استولى عليه الحزن عندما علم بوفاة أمه دون أن يراها وأمضى فترة طويلة صائماً متأملاً طالباً العزاء وهداية من الله.

❋ حاول أن يعمل بالمحاماة في الهند ولكنه لم يكن على معرفة بالقانون الهندي هذا فضلاً عن سوء معاملة القضاة لغاندي، لأن جميع المحامين كانوا من الإنجليز، فكان القضاة يعاملون غاندي بأسلوب شديد الإحراج أمام الحاضرين في قاعة المحكمة مما جعل غاندي لا يستطيع القيام بمهمته كمحام على أكمل وجه ممكن.

❋ حاول «غاندي» أن يترك المحاماة ويلجأ إلى التدريس لكي يستطيع أن يحصل على نقود يصرف منها على أسرته ولكن المدارس التي عرض عليها نفسه للعمل بها لم تقبله لعدم حصوله على درجة جامعية هندية.

❋ عاد «غاندي» إلى «راجكوت» وعمل محرراً للعرائض مثل الكتبة

الذين يجلسون على مكاتب صغيرة أمام المحاكم لكتابة الطلبات لطبقة من الناس الذين لا يعرفون الكتابة أو الذين يجهلون صيغة هذه الطلبات، وكان يتكسب حوالي ثلثمائة روبية شهرياً لا تكفي احتياجاته واحتياجات أسرته.

* فوجئ غاندي بأحد الأثرياء الهنود الذين يقيمون في اتحاد جنوب أفريقيا يعرض عليه قضية كبيرة تخص شركته وهو أحد سكان مدينة «ناتال» في جنوب أفريقيا وذلك عام 1893م ووجد غاندي في هذا العرض الجميل فرصته الذهبية للخروج من أزمته، وفعلاً توجه إلى اتحاد جنوب أفريقيا في مايو 1893م وقابل موكله «دادا عبد الله».

* وبعد أن درس «غاندي» القضية توجه إلى المحكمة بعد بضعة أيام وكان أمله أن يتكسب بعض المال بعد فترة إفلاس طويلة ويستطيع أن يبدأ حياته كمحامي ناجح.

* توجه «غاندي» وهو يلبس «الردنجوت» من أحدث الطراز وينتعل حذاء لامعاً ويضع فوق رأسه عمامة على النظام الهندي، ولكنه فوجئ أن القاضي الإنجليزي متعجرفاً وطلب منه القاضي أن يخلع هذه العمامة، فرفض غاندي وخرج غاضباً من قاعة المحكمة، ولكنه فكر بعد ذلك ارتداء القبعة الإنجليزية ولكن موكله «دادا

عبدالله» طلب منه في أدب ألا يرتدي هذه القبعة، وكان الأسلوب الذي قوبل به غاندي في محكمة «ديربان» أول مظهر صادفه في جنوب أفريقيا من مظاهر التفرقة العنصرية، فأرسل غاندي بصفته محام بخطاب احتجاج على هذه المعاملة، ومن الطريف حقا أن الصحف المحلية التي أرسل إليها هذا الاحتجاج نشرت له الخطاب كما هو دون أن تغير فيه حرفاً وكل ما فعلته أن كتب المحرر تعليقاً سريعاً يقول فيه إن هذا الخطاب من شخص غير مرغوب فيه، وكانت هذه التفرقة العنصرية تمثل الدافع الأول لغاندي ليقف ضد المتعصبين في جنوب أفريقيا.

* أما العامل الثاني فقد كان الدافع إليه ما حدث خلال سفره بالقطار متوجهاً إلى بريتوريا عاصمة «الترانسفال» عندما حجز لنفسه مكانا بالدرجة الأولى بالقطار الذي يغادر «ديربان» في المساء، وما أن وصل القطار إلى عاصمة الناتال «مارتزبورج» حتى دخل رجل أبيض إلى المقصورة التي يجلس فيها غاندي، فلما شاهد هذا الرجل غاندي ذو البشرة السمراء غادر الرجل الأبيض الديوان وعاد بعد دقائق ومعه اثنين من موظفي القطار حيث طلبا من «غاندي» الانتقال إلى مقاعد الدرجة الثالثة الخاصة بالملونين، فلما أخرج لهما التذكرة التي تثبت أحقيته في الدرجة الأولى أحضرا

له شرطياً أخرجه من الدرجة الأولى ومعه حقائبه قوة واقتداراً، وكان الوقت عند منتصف الليل والبرد شديد، ورغم أن «غاندي» كانت لديه فرصة للانتقال بشنطه إلى الدرجة الثالثة إلا إنه فضل مغادرة القطار، وفي هذه اللحظات عادت به الذاكرة إلى الهند، وفكر في العودة إليها، ولكنه عاد إلى عقله، وإلى أسلوبه في التفكير في أن هؤلاء الملونين ولا سيما الهنود الذين يقيمون في جنوب أفريقيا يقاسون من الاستعمار البريطاني ومن التفرقة العنصرية لذلك صمم غاندي على الوقوف إلى جانب هؤلاء الملونين حتى يحصل لهم على حقوقهم بطريقته الخاصة ولهذا فقد استأنف غاندي سيره إلى بريتوريا من أجل هذه القضية.

* وهناك تصريح لغاندي سأله أحد المراسلين الأجانب بعد سنوات عن التجربة التي تركت انطباعها في ذهنه وأثرت في حياته تأثيراً كبيراً فكان رد «غاندي» على الفور.. ليلة سفره بالقطار في جنوب أفريقيا ونزوله في محطة «مارتزبورج».

* في كل يوم أمضاه غاندي في اتحاد جنوب أفريقيا كانت التفرقة العنصرية متخذ مظهراً عنيفاً فيزداد كراهيته لها ولكن الغريب في الأمر أن هذه التفرقة خلقت من غاندي الرجل الخجول الذي يتميز بالحياء الكامل، وقد حولت هذه التفرقة حياة «غاندي»

إلى جرأة ضارية على مقاومة أي لون من الظلم مهما كان قاسيا وعنيفاً، وانقلب فعلاً إلى وضع حد لما يقابل مواطنيه من مذلة وهوان على أيدي هؤلاء البيض..

* اشتغل «غاندي» بالمحاماة في جنوب أفريقيا وكانت أخطر المشاكل التي تصادفه في المواصلات، ففي رحلته إلى «شارلستون» إلى «جوهانسبرج» التي تتم عن طريق العربات التابعة لإحدى الشركات، وهذه العربات من النوع الذي تجره الخيول ومعروف أن فوق ظهر العربة مقعد لفردين، القائد والسائق، وفي هذه المرة شاء حظ غاندي العاثر أن القائد جلس داخل العربة، وطلب من غاندي الرجل الملون أن يجلس بجوار السائق وبعد نصف ساعة خرج القائد من داخل العربة وصمم على أن يجلس مكان غاندي بجوار السائق وطلب من غاندي أن يجلس على قطعة خيش تحت أرجل السائق فما كان من غاندي إلا أن سأله أنا أحمل تذكرة فلماذا لا أجلس داخل العربة؟ فاستشاط قائد العربة غضبا وحاول أن يقذف بغاندي من العربة وهي على آخر سرعة، وتعلق غاندي بعارضة نحاسية في العربة، وظل قائد العربة يضربه ولم ينقذه إلا صياح الركاب البيض داخل العربة وقالوا لقائد العربة لماذا لا يجلس هذا الرجل داخل العربة وله الحق كل الحق في ذلك، عندئذ تركه يجلس داخل العربة بعدما وافق على رأي الركاب، وفي اليوم التالي، كتب غاندي

شكوى مطولة بكل ما حدث إلى شركة هذه العربات وجاءه الرد كتابة أنه سوف لا يُعامل بمثل هذه المعاملة بعد ذلك..

* دعا غاندي الهنود المقيمين في بريتوريا إلى اجتماع للوقوف على أحوالهم ومعرفة مشاكلهم ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة لها، ورحبوا باقتراحه الذي ينص على إنشاء حلقة للاتصال بينهم وبين السلطات المختصة وقد كتب غاندي في مذكراته الشخصية تفاصيل ذلك الاجتماع وما تم فيه نعرضها من خلال السطور التالية..

التواصل مع الهنود

كتب غاندي في مذكراته عن التواصل مع الهنود في جنوب أفريقيا قائلاً:

* كانت للسيد طيب حاجي خان محمد مكانه في بريتوريا كتلك التي كان يتمتع بها دادا عبد الله في ناتال، ولم يكن من الممكن قيام حركة شعبية أيا كانت دون مشاركته.

* لقد تعرفت إلى السيد طيب حاجي في الأسبوع الأول من إقامتي في بريتوريا وأخبرته بعزمي على التواصل مع جميع الهنود المقيمين بها وعبرت له أيضاً عن رغبتي في دراسة أحوال الهنود هناك وطلبت مساعدته في هذا فوافق بكل سرور.

* كانت الخطوة الأولى في طريق مسعاي هي الدعوة إلى عقد اجتماع موسع يضم جميع الهنود المقيمين في بريتوريا، وعرض صورة لأحوالهم في الترانسفال، وعقد الاجتماع في بيت السيد حاجي محمد حاجي الذي كنت أحمل خطاب توصية إليه، وقد كان معظم الحضور من التجار المنتمين إلى طائفة الميمان بالإضافة إلى حضور بعض الهندوس، وكان عدد الطائفة الهندوسية في بريتوريا ضئيلاً للغاية..

* ويمكن القول إن الخطبة التي ألقيتها في ذلك الاجتماع تُعد أول خطبة عامة ألقيها في حياتي وكنت قد أعددت الموضوع الذي سأتحدث عنه جيداً وكان يدور حول الالتزام بالصدق في العمل، فلطالما سمعت التجار يتحدثون عن صعوبة الالتزام بالصدق في التجارة، لكنني لم أكن مقتنعاً بذلك ولا أزال غير مقتنع وحتى الآن لا يزال هناك تجار يؤكدون أن الصدق والتجارة لا يجتمعان، فالعمل كما يزعمون مسألة دنيوية بحتة أما الصدق فهو أمر دين، ويستطردون في زعمهم قائلين إن الأمور العملية ليس لها علاقة، فيدعون أن الصدق مستحيل في مجال التجارة، ويمكن أن يكون الإنسان صادقاً فقط بالدرجة التي لا تُضار بها تجارته، وأخذت أفند الموقف بشدة في خطبتي ونبهت التجار إلى واجبهم المضاعف، فقد كان التزامهم بالصدق في دولة أجنبية أعظم شأناً، لأن سلوك قلة من الهنود هو المقياس الذي يكون على أساسه الحكم على سلوك الملايين من أبناء وطنهم.

* ووجدت أن عادات قومي غير صحية مقارنة بمن حولهم من الإنجليز فوجهت نظرهم لذلك الأمر، وأكدت على ضرورة إذابة جميع عوامل التفرقة والتمييز بين الهنود من هندوس ومسلمين وبارسيين ومسيحيين وجوجراتيين ومدراسيين وبنجابيين وسند، وكاشتيين،

وسوراتيين وغيرهم، فاقترحت تشكيل جمعية تمثل حلقة الوصل بين الجالية الهندية والسلطات المختصة لمعالجة الصعاب التي يتعرض لها الهنود، وعرضت أيضاً تقديم كل ما يمكنني من وقت وجهد في خدمة هذه الجمعية.

* تركت خطبتي انطباعاً جيدا لدى الحضور، ثم تبعتها مناقشة، عرض عليَّ البعض فيها تزويدي بحقائق عن أوضاع الهنود في جنوب أفريقيا مما زاد من حماستي، وكان عدد قليل جداً من الحضور يفهمون اللغة الإنجليزية، فاقترحت على مَنْ لديهم متسع من الوقت تعلم اللغة الإنجليزية انطلاقا من إيماني بأن هذه اللغة ستكون مفيدة للهنود المقيمين في هذه البلاد وأخبرتهم بأن الأوان لا يفوت أبدا على تعلم اللغة، حتى مع تقدم العمر، ثم ضربت لهم الأمثال لأشخاص تعلموا اللغات في الكبر، وتعهدت بالتدريس إذا ما أقاموا حلقة دراسية، أو بتقديم الإرشادات للراغبين منهم في تعلم الإنجليزية.

* لم تتشكل حلقة دراسية ولكن عبر ثلاثة رجال عن استعدادهم لتعلم اللغة الإنجليزية في المواعيد التي تناسبهم وبشرط أن أذهب إلى أماكن عملهم لألقنهم الدروس، وكان اثنان من الرجال الثلاثة مسلمين، أحدهما حلاق، والآخر كاتب، أما الثالث فكان هندوسيا يمتلك متجرا صغيرا، فوافقت على أن أعلمهم اللغة الإنجليزية بما

يتناسب مع ظروفهم، لم أشك للحظة في قدرتي على التدريس، فكان يمكن أن يشعر الرجال الثلاثة بالضجر أو الإجهاد أثناء الدروس، أما أنا فلا، وكنت أحيانا ما أذهب إلى أماكن عملهم فأجدهم مشغولين في العمل، ومع ذلك لم يكن صبري ينفد، ولم يعتزم أي من الرجال الثلاثة التعمق في دراسة اللغة الإنجليزية، لكن يمكن القول إن اثنين منهم حققا تقدما في ثمانية أشهر، وتعلما ما يكفي من اللغة لإمساك الحسابات وكتابة خطابات العمل المعتادة، أما الحلاق فلم يتخط طموحه تعلم ما يكفيه من اللغة للتعامل مع زبائنه، وقد ساعد تعلم اللغة الإنجليزية اثنين من الرجال على تأمين دخل جيد.

* كانت نتيجة الاجتماع مثمرة إلى حد بعيد، وتقرر عقد مثل هذه الاجتماعات حسبما أذكر أسبوعيا أو ربما شهرياً، وكان انعقادها منتظماً بقدر ما، وكنا نتبادل فيها الأفكار بحرية، وأصبحت أعرف جميع الهنود المقيمين في بريتوريا وأعرف مشاكل كل منهم وشجعني ذلك على التعرف إلى المعتمد السياسي البريطاني في بريتوريا السيد «جاكوب دي ويت» وكان السيد جاكوب متعاطفا مع الهنود، لكن نفوذه كان محدوداً ومع ذلك وافق على مساعدتنا قدر استطاعته ودعاني لزيارته متى شئت.

ويواصل غاندي حديثه قائلاً:.

* أرسلت إلى سلطات السكك الحديدية وأخبرتهم بالقيود المفروضة على سفر الهنود حتى في ظل وجود اللوائح الخاصة بالسكك الحديدية الغير مبررة، فجاءني رد مفاده أن تذاكر الدرجة الأولى والثانية ستصرف للهنود الذين يرتدون زيا لائقا، ولم يكن هذا الرد شافياً فقد اعتمد على حرية ناظر المحطة في تحديد مَنْ «يرتدي زيا لائقا».

* أطلعني المعتمد السياسي على بعض الأوراق المتعلقة بشئون الهنود، كتلك التي أعطاها لي السيد (طيب) وعلمت من هذه الأوراق مدى القسوة التي تطارد بها حكومة أورانج الحرة الهنود.

* فباختصار يمكن القول بأن إقامتي في بريتوريا مكنتني من إجراء دراسة متعمقة للأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للهنود في الترانسفال وأورانج الحرة، ولم أكن أدري وقتها أن تلك الدراسة سوف تعود عليَّ بفائدة عظمى في المستقبل وكنت أفكر في العودة إلى الوطن في نهاية العام أو قبل ذلك فور انتهاء القضية ولكن القدر شاء غير ذلك.

أحوال الهنود في جنوب أفريقيا

عن أحوال الهنود في جنوب أفريقيا قال غاندي:.

* كان الهنود في دولة أورانج الحرة محرومين من جميع حقوقهم بموجب قانون خاص صدر عام 1888م وربما قبل ذلك، فعلى مَنْ يرغب من الهنود في الإقامة بها أن يعمل نادلاً في الفنادق أو خادماً فحسب، وكان يُمنع التجار من مزاولة نشاطهم مقابل حصولهم على تعويضات ضئيلة، وقد قدموا شكاوى وعرائض دون جدوى.

* صدر قانون صارم للغاية في الترانسفال في عام 1885م وأضيفت تعديلات طفيفة عليه عام 1886م، وقد نص القانون المعدل على فرض ضريبة مقدارها 3 جنيهات إسترلينية كرسم دخول إلى الترانسفال، ولا يجوز للهنود تملك الأراضي إلا في بعض الأجزاء المخصصة لهم، ولكن في حقيقة الأمر لم يمكن تملكهم لهذه الأجزاء ملكية حقيقية لعدم تمتعهم بحق الامتياز، وكانت كل هذه الأحكام مفروضة بموجب القانون الخاص بالأسيويين الذين

كانوا يخضعون أيضاً إلى قوانين الملونين، وكانت قوانين الملونين هذه تمنع سير الهنود على الطرق المخصصة للمشاة أو الخروج من منازلهم بعد التاسعة مساء دون تصريح، وكان تطبيق حكم منع الخروج من المنازل بعد التاسعة مساء فيما يتعلق بالهنود، فالهنود من العرب كانوا يستثنون من ذلك الحكم على سبيل المجاملة، وهكذا كان الاستثناء يتوقف على أهواء رجال الشرطة.

ويستطرد غاندي قائلاً:.

* وقد كتب لي أن أعاني مرارة الحكمين، فكنت كثيرا ما أخرج ليلاً مع السيد/ كوتس للمشي، وكنا عادة ما نتأخر بالخارج حتى العاشرة مساء، وكان السيد كوتس أكثر منى قلقا حيال إمكانية إلقاء الشرطة القبض عليَّ، وكان يمنح خادميه الزنوج تصريحات، لكن كيف له أن يمنحني تصريحاً أنا الآخر؟ فالسيد يمكنه فقط منح تصريح لخادمه، وحتى في حالة رغبتي في الحصول على تصريح منه واستعداده لمنحي إياه، لم نكن لنقدم على مثل هذه الفعلة لأن ذلك يُعد احتيالاً، فاصطحبني السيد كوتس وبعض أصدقائه إلى النائب العام الدكتور كروس وتبين أنني والسيد كروس تخرجنا من نفس الجامعة القانونية وكان من الصعب عليه منحي تصريحاً يسمح

لي بالتواجد خارج المنزل بعد التاسعة مساء، لكنه عبر تعاطفه معي وبدلاً من منحي التصريح أعطاني خطابا يسمح لي بالتواجد خارج المنزل في أي وقت دون تعرض من الشرطة، وكنت أحمل هذا الخطاب أينما ذهبت وكان عدم اضطراري لاستخدام هذا الخطاب يُعد من قبيل الصدفة المحضة.

* دعاني الدكتور «كروس» إلى منزله، ويمكن القول أصبحنا أصدقاء، وكنت أزوره أحيانا حتى أن الفضل يرجع إليه في تعرفي إلى أخيه ذائع الصيت الذي كان يعمل رئيسا للنيابة في جوهانسبرج، وقد خضع لمحاكمة عسكرية في حرب البوير بتهمة التآمر على قتل جندي إنجليزي، وقد حُكم عليه بالسجن سبع سنوات، وشطب من نقابة المحامين إلا أنه قد أُطلق سراحه عقب انتهاء أعمال العنف، ومارس عمله بالمحاماة بعد قبوله مرة أخرى في نقابة محامي الترانسفال على نحو مشرف، وقد عادت عليَّ مثل هذه العلاقات بالنفع فيما بعد في حياتي العامة وسهلت الكثير من عملي، أما عواقب قانون منع السير على طرق المشاة فكانت أكثر خطورة عليَّ، كنت دائما ما أخرج للمشي عبر شارع «بريزيدنت» حتى أصل إلى سهل مترامي الأطراف، وكان منزل الرئيس «كروجر» يقع في ذلك الشارع، وكان يتسم بالتواضع والبساطة وغير محاط بحديقة، فلم يكن هناك ما يميز المنزل عن

بقية المنازل المجاورة له وكانت منازل العديد من الأثرياء في بريتوريا أكثر فخامة من منزله ومحاطة بالحدائق، وفي الحقيقة كان الرئيس «كروجر» معروفاً ببساطته ولولا الشرطي الواقف أمام المنزل ما انتبه المارة إلى أن المنزل يخص أحد المسئولين وكنت عادة ما أسير على طريق المشاة مارا بذلك الشرطي دون أن يتعرض لي، وكان الشرطي يتغير من وقت إلى آخر، وفي أحد المرات دفعني الشرطي المسئول وجرني بعيدا عن الطريق دون سابق إنذار ودون حتى أن يطلب مني الابتعاد عن الطريق، فهالني الموقف كثيرا، وقبل أن أستفسر عن تصرفه هذا وجدت السيد: كوتس الذي كان مارا في نفس الشارع على ظهر حصان يهتف قائلاً: «لقد رأيت كل ما حدث يا غاندي، ويسعدني أن أشهد معك في المحكمة إذا ما قاضيت ذلك الشرطي، وأعتذر لتعرضك لمثل هذا الاعتداء العنيف».

فأجبته قائلاً: ـ لا داعي للاعتذار، فالشرطي لا يعرف شيئاً فالملونين جميعاً عنده سواء، ولا شك أنه يعامل الزنوج بنفس الطريقة التي عاملني بها، ولقد عاهدت نفسي ألا أقاضي أي شخص لمظلمة تخصني، ولذلك لن أُقاضي ذلك الشرطي، فقال لي: ـ «هكذا أنت دائما يا غاندي» لكن أرجو أن تعيد التفكير في الأمر يجب علينا أن نلقن مَنْ هم على شاكلة ذلك الشرطي درسا.

* ثم تحدث السيد / كوتس إلى الشرطي وعنفه بشدة، ولم أستطع فهم الحديث الذي دار بينهما لأنهما كانا يتحدثان باللغة الهولندية نظرا لكونه من «البوير» فاعتذر لي الشرطي مع عدم وجود حاجة للاعتذار فقد كنت سامحته بالفعل.

* على أنني لم أسر في ذلك الشارع منذ ذلك الحين، فسوف يأتي أشخاص آخرون مكان ذلك الشرطي، ويمكن أن يتصرفوا مثلما تصرف هو لجهلهم بما حدث، فلماذا أخاطر بتعرضي للضرب مرة أخرى من غير داع؟ فاخترت طريقا آخر للمشي..

* زادت هذه الواقعة من شعوري بمعاناة الجالية الهندية، فناقشت معهم فكرة رفع دعوى في حالة الحاجة لذلك، بعد رؤية المعتمد السياسي البريطاني لمناقشة هذه القوانين.

* وهكذا استطعت أن أدرس الأوضاع القاسية التي تعانيها الجالية الهندية عن كثب، ليس فقط من خلال ما قرأته وسمعته ولكن من خلال التجربة الشخصية أيضاً، واتضح لي أن الهنود لا يلاقون الاحترام الملائم في جنوب أفريقيا، وأصبح ذهني مشغولاً أكثر فأكثر بكيفية تحسين هذه الأوضاع، لكن مهمتي الرئيسية في ذلك الحين كانت تقتصر على حضور قضية السيد دادا عبد الله.

«الفصل الخامس»

كفاح غاندي ونضاله بعد عودته وحتى اغتياله

العودة إلى الهند

* عاد «غاندي» من جنوب أفريقيا إلى الهند عام 1915م وفي غضون سنوات قليلة من العمل الوطني أصبح الزعيم الأكثر شعبية ومركز عملة العام هو النضال ضد الظلم الاجتماعي من جهة وضد الاستعمار من جهة أخرى واهتم بشكل خاص بمشاكل العمال والفلاحين والمنبوذين.

صيام حتى الموت

* قرر غاندي في عام 1932م البدء في صيام حتى الموت احتجاجاً على مشروع يكرس التمييز في الانتخابات ضد المنبوذين الهنود مما دفع بالزعماء السياسيين والدينيين إلى التفاوض والتوصل إلى «اتفاقية بونا» التي قضت بزيادة عدد النواب المنبوذين وإلغاء نظام التمييز الانتخابي.

موافقة من الاحتلال البريطاني

* تميزت مواقف غاندي من الاحتلال البريطاني لشبه القارة

الهندية في عمومها بالصلابة المبدئية التي لا تلغي أحيانا وجود المدونة التكتيكية وتسبب تنقله بين المواقف القومية المتصلبة والتسويات المرحلية المهادنة مع خصومه ومؤيديه وقد وصل ذلك أحيانا إلى حد التخوين والطعن في مصداقية نضاله الوطني من قبل المعارضين لأسلوبه فعلى سبيل المثال تعاون غاندي مع بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، وشارك عام 1818م بناء على طلب من الحاكم البريطاني في الهند بمؤتمر دلهي الحربي ثم انتقل للمعارضة المباشرة للسياسة البريطانية بين عامي 1918 ـ 1922م وطالب خلال تلك الفترة بالاستقلال التام عن الهند.

* في عام 1922م قاد حركة عصيان مدني صعدت من الغضب الشعبي الذي وصل في بعض الأحيان إلى صدام بين الجماهير وقوات الأمن والشرطة البريطانية مما دفعه إلى إيقاف هذه الحركة، ورغم ذلك حكمت عليه السلطات البريطانية بالسجن ست سنوات ثم عادت وأفرجت عنه في عام 1924م.

« مسيرة الملح »

* تحدى غاندي القوانين البريطانية التي كانت تحصر استخراج الملح بالسلطات البريطانية فقط مما أوقع هذه السلطات في مأزق

وقاد مسيرة شعبية توجه بها إلى البحر لاستخراج الملح من هناك وفي عام 1931م أنهى هذا العصيان بعد أن توصل الطرفان إلى حل وسط ووقعت معاهدة «غاندي ـ أيروين».

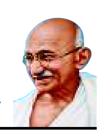
«الاستقالة من حزب المؤتمر لمواصلة النضال»

* قرر غاندي في عام 1934م الاستقالة من حزب المؤتمر والتفرغ للمشكلات الاقتصادية التي كان يُعاني منها الريف الهندي.

* في عام 1937م شجع الحزب على المشاركة في الانتخابات معتبرا أن دستور عام 1935م يشكل ضمانه كافية وحدا أدنى من المصداقية والحياد.

* في عام 1940م عاد إلى حملات العصيان مرة أخرى، فأطلق حملة جديدة احتجاجاً على إعلان بريطانيا الهند دولة محاربة لجيوش المحور دون أن تنال استقلالها، واستمر هذا العصيان حتى عام 1941م كانت بريطانيا خلالها مشغولة بالحرب العالمية الثانية ويهمها استتباب أوضاع الهند حتى تكون عونا لها في المجهود الحربي.

* وإزاء الخطر الياباني المحدق حاولت السلطات البريطانية المصالحة مع الحركة الاستقلالية الهندية فأرسلت في عام 1942م



بعثة عرفت باسم «بعثة كريبس» ولكنها فشلت في مسعاها، وعلى أثر ذلك قبل غاندي في عام 1943م ولأول مرة فكرة دخول الهند في حرب شاملة ضد دول المحور على أمل استقلالها بعد ذلك، وخاطب الإنجليز بجملته الشهيرة «اتركوا الهند وأنتم أسياد» ولكن هذا الخطاب لم يعجب السلطات البريطانية فشنت حملة اعتقالات ومارست أنواعاً من القمع العنيف كان «غاندي» نفسه من ضحاياه حيث ظل معتقلا خلف قضبان السجن ولم يفرج عنه إلا في عام 1944م.

«تقسيم الهند»

* بانتهاء عام 1944م وبداية عام 1945م، اقتربت الهند من الاستقلال وتزايدت المخاوف من الدعوات الانفصالية الهادفة إلى تقسيم الهند بين دولتين دولة للمسلمين ودولة للهندوس، وحاول غاندي إقناع «محمد على جناح» الذي كان على رأس الداعين إلى هذا الانفصال بالعدول عن توجهاته لكنه فشل..

* وتم بالفعل في 16 أغسطس أب 1947م، وما أن أعلن تقسيم الهند حتى سادت الاضطرابات الدينية عموم الهند، وبلغت من العنف حداً تجاوز كل التوقعات فسقط في «كلكتا» وحدها على سبيل المثال ما يزيد عن خمسة آلاف قتيل، وقد تألم «غاندي» لهذه

الأحداث واعتبرها كارثة وطنية، كما زاد من ألمه تصاعد حدة التوتر بين الهند وباكستان بشأن «كشمير» وسقوط العديد من القتلى في الاشتباكات المسلحة التي نشبت بينهما عام 1947 ـ 1948م وأخذ يدعو إلى إعادة الوحدة الوطنية بين الهنود والمسلمين طالباً بشكل خاص من الأكثرية الهندوسية احترام حقوق الأقلية المسلمة.

اغتيال غاندي

* ولم ترق دعوات غاندي للأغلبية الهندوسية باحترام حقوق الأقلية المسلمة واعتبرتها بعض الفئات الهندوسية المتعصبة خيانة عظمى فقررت التخلص من غاندي.

* وبالفعل في 30 يناير 1948م أطلق أحد الهندوس المتعصبين ويدعى «ناثورم جوتسي» ثلاث رصاصات قاتلة على غاندي سقط على أثرها صريعاً عن عمر يناهز 78 عاما.

* وهكذا أسدل الستار على قصة رجل من أعظم الرجال وأكثرهم شجاعة المهاتما غاندي.

فهرس المحتويات